روايات عبير



فلورا كيد

بين الحلم والواقع

١٧٠

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 170

بين الحلم والواقع

الين مورتن عندما التقت حبيبها الأول بعد مرور خمس سنوات، اعتقدت بأن حبها مات ودفن في حدائق الماضي.

دومينيك لايتش نظر الى الين حين التقاها صدفة فخرجت من عينيه رياح دافئة فتحت دفاتر النسيان، وأشعلت حريقاً جديداً في قلب الين. الذكريات مع دومينيك صورة جميلة لكنها ملطخة بالوحل. احبته بجنون وهو خانها مع شقيقتها وهرب معها.

انه ماض امتزجت فيه الضحكة بالدمعة والسعادة بالألم. وها هي بعد مرور هذا الزمن تجد نفسها تعود راضية الى قيودها القديمة ولكن الذكرى تؤلمها... العذاب يأتيها من الماضي ليفجر أحزانه في المستقبل... والغصة خلفها وأمامها. لذلك تقرر الين الابتعاد الا ان دومينيك يحكم قيوده حولها ويسجنها في قلمنه ويقرأ لها كتاب الماضي، فتكتشف الين بأن شقيقتها كذبت عليها. الا انها تستمر في المقاومة...

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
CASTLE OF TEMPTATION

المراسلات
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١ - حصار في قلعة الغرام

وصلت ألين موردن ليلة الأمس الى اردغور مستقلة سيارة الركاب الكبيرة الآتية من فورت ويليام.

حلّت ضيفة على منزل السيدة ميتلاند التي أحالت منزلها بعد وفاة زوجها إلى بيت للنزلاء الذين يرغبون في قضاء إجازاتهم في المرتفعات الاسكوتلندية، يتمشون بين أحضان طبيعة أردغور الرائعة تارة، ويصطادون من بحيراتها تارة أخرى.

جلست ألين في الردهة الأمامية فوق الأريكة، واسندت جبهتها الى زجاج النافذة القديم الطراز، وتساءلت بغموض ما الذي دفعها الى زيارة شاطيء اسكوتلندة الشمالي الغربي في شهر آذار (مارس).

عبر حائط الحديقة المنخفض الذي فصل حديقة المنزل الأمامية

ذات الأشجار الخضراء عن الممر الضيق، لم تر سوى سحابة ضباب كثيف رمادية اللون، حيث مسّت الغيوم السوداء المنخفضة التي دفعتها العاصفة الهوجاء الآتية من بحر المانش صفحة مياه البحيرة الاسكوتلندية غور التي تشكل امتداداً شاسعاً من الماء بين الأراضي الاسكوتلندية وجزر هاريس ولويس.

وسرعان ما استرعى انتباه ألين تراقص النيران في الموقد، وتلاطم الدخان المتصاعد من نار الفحم الملتهب ملطخاً بالسخام الأسود جوانب الموقد اللامعة المبنية على الطراز الفيكتوري، وزئير الرياح التي تعصف بنوافذ المنزل ذي الطبقات الثلاث، حيث أخذت النوافذ تصرّ، والرياح تتسرّب من تحت الأبواب الرديئة التركيب لتعبث بالسجاد الملقى على أرض المنزل الخشبية اللامعة.

دخلت السيدة ميتلاند صاحبة المنزل الى الغرفة مسرعة وهي تحمل وعاء مليئاً بالفحم. نظرت ألين اليها فوجدت أن ملامحها لم تتبدل كثيراً خلال الخمس سنوات الماضية عندما تعرفت اليها لأول مرة. فما زالت قصيرة ممتلئة الجسم، ذات وجه مستدير، زهري اللون. أكسبته عيناها الرماديتان اطلالة خاصة. وفجأة قطع صوت السيدة ميتلاند الضاحك تأمل ألين إذ قالت:

- من المؤسف أن يكون الطقس رديئاً في هذا الشهر من السنة.

فأجابتها ألين:

- الحمدلله أن السماء لم تثلج بعد.

- لا استطيع أن اطمئنك، فمن المحتمل ان يسقط الثلج على المرتفعات حسب النشرة الجوية (نهضت فطقطقت مفاصلها وأردفت) متى سيصل صديقك يا ألين؟

- في الساعة الخامسة والنصف.

- آمل أن يجتاز ممر جليتكوري قبل هطول الثلج. فالقليل منه يغلق الطريق. هل لك أن تخبريني باسم صديقك ثانية؟

- جورج لوسن.

رددت ألين اسم صديقها على الرغم من ثقتها أن السيدة ميتلاند ما زالت تذكره جيداً.

- أعتقد انك اخبرتني ان جورج رئيسك في العمل، وانه يريد غرفة لقضاء يومين هنا.

- اجل.

عاودت ألين النظر من النافذة لتشعر السيدة ميتلاند بعدم رغبتها في متابعة الحديث عن جورج، فهي مازالت تتساءل في أعماقها لماذا ترتقب قدوم جورج الذي اقترح ان يقضيا معاً عطلة نهاية الأسبوع في المرتفعات الاسكوتلندية اذ قال لها:

- سأذهب الى فورت ويليام لزيارة رجل مسنّ، طلب مني أن أساعده في تغيير وصية كتبها في ادنبره. هل ترافقيني؟ سنغادر يوم الخميس، وبعد انجاز العمل، سنمضي يوم الجمعة في مكان هادىء، نستمتع بالراحة، نمشي ونتكلم، اذ لا مجال هنا للاستجمام. هل تعرفين مكاناً ملائماً لذلك؟

اخبرته ألين عن جزيرة أردغور حيث الجمال والهدوء. اذ قضت عدة اجازات ممتعة في تلك الجزيرة التي تفصلها سلسلة جبال عالية تقع الى الشرق فقالت:

- أعتقد ان السيدة ميتلاند سترحب بنا في منزلها المخصص للنزلاء، وإن كان الموسم السياحي يبدأ في شهر أيار (مايو). لقد اعتدت أن أقيم عندها مع والدتي مارجري ولوري زوجها وكاتريونا شقيقتي لقضاء العطلة الصيفية.

فأجاب جورج:

- حسناً، رتبي الأمر، وأعتقد ان المشرفة على منزلي السيدة كاثي فوربس تستطيع الاعتناء بطفلتي ريثما أعود.

اتصلت ألين بالسيدة ميتلاند، وطلبت منها ان تحجز غرفتين مستقلتين لمدة أربعة ايام بلياليها. ثم اخبرت والدتها عن هذا المشروع. فسألتها والدتها:

- وهل تجبرينني لأخذ رأيي في الموضوع؟
- اجل!
- اظن ان جورج سيطلب الزواج منك، فالرجال الحريصون أمثاله لا يقترحون قضاء الاجازة على هذا النحو الطائش الاّ اذا كان في الأمر نية ما.
- آمل الاّ يكون الأمر كذلك. ما كنت لأذهب معه لو راودني ذلك الخاطر، وما الذي دفعك الى مثل هذا الظن يا أماه؟
- لاحظت بعض المؤشرات عندما اجتمعت به اخيراً. انه رجل محترم يا ألين، وستخسرين كثيراً إذا لم تتزوجي منه، فهو رصين ومستقل، كما أن له خبرة بالنساء. لكنني لا اعلم لماذا هجرته زوجته منذ أعوام تاركة طفلتين صغيرتين!
- لست مقتنعة بالزواج. اريد متابعة دراستي، ونيل شهادة الحقوق.
- وهل يمنعك الزواج من تحقيق ذلك؟ لا بل ستتاح لك الفرصة خاصة اذا تزوجت من محام. ثم متى كان الزواج عائقاً في وجه المرأة؟ ها أنذا قد تزوجت مرتين.
- اعلم هذا ولكن!
اضطرت ألين أن تلوذ بالصمت حيث قاطعتها والدتها ذات الشخصية القوية:
- اعتقد انك تخشين فارق العمر بينكما.
اجابتها ألين معترضة وهي تضحك قليلاً:
- ولكن يا امي الا ترين ان الزواج موضوع سابق لأوانه؟ لم يطلب جورج ذلك مني بعد.
لكن الأم تابعت حديثها:
- اعتقد انك تخشين تحمل مسؤولية طفلتيه، ولك الحق في ذلك. فأنا ادرك تماماً انه ليس من السهل أن تكون المرأة زوجة اب أيضاً.
- ولكنك تصرفت مع كاتريونا بشكل رائع.

- لو اني قمت بمهمتي على أكمل وجه، لما هربت كاتريونا من المنزل مع دومينيك لايتش منذ خمس سنوات.
تنهدت ألين لهذه الذكريات، وحاولت أن ترى من خلال ستار الغيم الرمادي الطرف الآخر للبحيرة. إن دومينيك ابن أخ السيد هيو لايتش الذي يملك قلعة الصخر وهي منزل محصن شيّد فوق جزيرة صخرية صغيرة جداً تتصل بالأرض الاسكوتلندية عبر ممر ضيق من الحصى والصخور. وقبل أن يتقاعد السيد هيو من عمله في شركة الأخوة لايتش للبناء، قام بتجديد داخل القلعة دون أن يمس معالمها الخارجية، لأن البناء جزء من ممتلكات العائلة منذ مئات السنين.
سألت ألين السيدة ميتلاند التي شغلت نفسها بتنظيف السخام في الموقد:
- هل من أحد يسكن القلعة الآن؟
- لا. لا أحد يشغلها منذ وفاة السيد هيو الذي كان شغوفاً بقلعته، لكن ابنته هيستر كارستيرز لا تعيرها اهتماماً.
وعندما عاودت ألين النظر من النافذة، كانت الغيوم قد بدأت تجر أذيالها مما اتاح لها رؤية القلعة رابضة فوق الهضبة على الطرف الآخر لبحيرة لوه، وقد اتشحت بشعاع شاحب من أشعة الشمس الخفيفة، اكسب جدرانها الحجرية لوناً فضياً.
قالت ألين بتأمل:
- يبدو لي وكأن دهراً قد انصرم منذ قدومي الى هنا آخر مرة، على الرغم من غيابي خمس سنوات فقط.
- فترة بسيطة!
- اجل... لم تمض الا فترة بسيطة على الاجازات الصيفية، حيث كنت آتي الى هنا مع كاتريونا، وهيلين كارستيرز، وأحفاد السيد هيو (اجابت ألين وقد نهضت من جوار النافذة) يبدو أن الطقس سيعتدل، سأذهب لأمشي بمحاذاة الشاطىء، فما زال الماء

منخفضاً، وربما استطعت أن أعبر الممر باتجاه القلعة.

- يجب أن تنتبهي الى المد (حذرتها السيدة ميتلاند) اذ انه يغمر الطريق بسرعة كبيرة في مثل هذا الوقت، ولا احب ان اخبر صديقك جورج انك محجوزة في الجزيرة.

- لا تقلقي (اجابت ألين باشراق) لم يغلق الطريق امامي خلال خمس سنوات مضت عندما كنت آتي الى هنا.

- هناك دوماً نقطة بداية (همهمت السيدة ميتلاند) لهذا انتبهي جيداً يا حبيبتي.

وما ان مضت خمس عشرة دقيقة، حتى انتعلت ألين حذاء جلدياً عالي الساق، وارتدت تنورة متوسطة الطول، وسترة مبطنة بالفراء. ثم انطلقت الى الحديقة عبر الممر الضيق، وهبطت السلم الحجري الذي يصل بين خليط من الأحجار الآجرية التي سهلت اتصال الشاطىء الرملي القاسي بمياه البحيرة.

لم تلبث الريح أن زمجرت، وأخذت تداعب وشاح ألين الحريري الذي رفرف فوق رأسها كبيرق، مما اضطرها لأن تخفي يديها في جيبي تنورتها، كي تتقي شر البرد الذي بدأ ينذر بعاصفة ثلجية. وما لبث الغيوم أن تكاثفت، ففقدت بألوانها الفضية المتموجة، وسوادها الداكن بلون الفحم، وكأنها قطع صوف متناثرة. تعثرت ألين في خطاها، والريح تشتد، والمياه تزحف، وتهدر بجنون على شكل موجات ذات ذرى بيضاء.

وعلى الرغم من هذه المظاهر كلها، فقد سرّت ألين لخروجها من المنزل. اذ استنشقت شذى ماء البحر المالح، واستمتعت برؤية ملتقطي المحار ومفتشي الرمال، وهم يركضون على الشاطىء يقلبون الرمال بعصا طويلة باحثين عن الصدف، مستمتعين بأصوات طيور الكروان، ترفرف بأجنحتها فوق الهضاب، وبأصوات النورس التي تحوم فوق ممر رأس البحيرة. حثت ألين خطاها كي تحتفظ بالدفء، وسرعان ما وصلت الى طريق منحدر باتجاه الخليج عبر الشاطىء

الذي يلتقي بالممر المائي، فصادفت بيتاً أبيض للصياد أنغوس ماكويري الذي يعتبر أيضاً من صغار المزارعين. كان البيت مؤلفاً من دور واحد بني فوق أخشاب الصنوبر الملتوية بتأثير الرياح

زادت لسعات البرد من تألق وجهها، وتناثرت خصل من شعرها الأشقر فوق جبهتها، وهي تقف فوق الحصى الرطبة لممر ضيق يسمح بمرور سيارة واحدة. بات المسير صعباً فوق الممر، اذ قذفت الأمواج الحشائش المبللة فوقه. ولكن سرعان ما انحسر الموج، وهدأت العاصفة، فرأت ألين ان باستطاعتها زيارة القلعة والعودة منها قبل أن يغمر المد الطريق ثانية. فالساعة تشير الى الثالثة والنصف، والقلعة لا تبعد الا ميلاً ونصف الميل فقط. وبعدها ستقابل جورج في منزل أردغور في الوقت المحدد. بعد أن عدّل خطة سفره، وطلب منها أن تسافر بمفردها على أن يتبعها بعد يومين ليقضيا يوم السبت معاً، وليغادرا صباح الأحد باتجاه فورت ويليام لمقابلة ذاك الرجل المسن صباح الاثنين.

شقّت ألين، وسط الرياح الشديدة، طريقها باتجاه القلعة التي كانت تتظاهر بأنها تفتنها عندما كانت أصغر سناً. ها قد اختفى شعاع الشمس، وبدت جدران القلعة عالية وشامخة، عدا بعض الفجوات التي تبعثرت عليها كنوافذ سرية. أما سقفها فقد انحدر بشدة، وارتفع فوقه برج مستدير ذو سقف مدبب. وكم من مرة تسلقت ألين بصحبة تشارلي وهيلين الدرج اللولبي الحجري المؤدي الى الممر الضيق خلف الحصن الأعلى الموازي للسقف.

وجدت ألين مشقة في الدوران حول القلعة تفوق مشقة اجتياز الطريق، كما لاحظت أن الاهمال شمل الحديقة فغدا المرج طويلاً ومتداخلاً مليئاً بنبات السرخس، كما عششت الطحالب فوق الدرج الموصل الى باب القلعة المصنوع من خشب السنديان. وبعد جهد جهيد، وصلت الى احدى زوايا القلعة الآمنة، فوقفت تلتقط أنفاسها. ادهشتها رؤية سيارة جاكوار تقف قرب الباب المنخفض

المستدير المؤدي الى قبو القلعة. وأدركت آلين ان شخصاً ما في القلعة، واعتقدت انه تشارلي فلربما عاد بصحبة هيلين من غلاسكو لقضاء عطلة نهاية الاسبوع. اعترتها موجة عارمة من السعادة للقاء اصدقائها القدامى. ولكنها ما لبثت ان تنبهت لصوت أفزعها يهمس من خلفها:

ـ انك تجتازين أملاكاً خاصة.

كان الصوت مألوفاً لديها، ذا لهجة اجنبية تتداخل بعض حروفها بالأخرى مما زاد في جاذبيته. لقد مضى على سماع ذلك الصوت خمس سنوات، وها قد قاربت أن تنساه. لكنها مع هذا لم تلتفت كلية نحوه فقد خشيت أن يكون ذلك من نسج خيالها، وأن يقفز امامها احد الأشباح، اذ يقر الجميع ان القلعة مسكونة، وان سكانها القدامى يكلمون الزائرين في هذه الأحوال الجوية السيئة. لكن الصوت مضى متسائلاً وبتصميم:

ـ هل تبحثين عن احد ما هنا؟

مالت برأسها الى الوراء قليلاً، فلمحت حذاء جلدياً بني اللون، وسروالاً من المخمل الرمادي، مما أوحى لها بأن الصوت ليس من نسج الخيال. استدارت رويداً رويداً لترى رجلاً ذا عينين زرقاوين واسعتين، عرفته على الفور. انه دومينيك لايتش. قالت بصوت متهدج وما زالت تشمخ برأسها كيلا تظهر اضطرابها، عندما وجدت نفسها فجأة وجهاً لوجه امامه دون أدنى توقع لهذا اللقاء وقالت:

ـ ظننت ان تشارلي وهيلين موجودان في الداخل.

لم تشعر بما حل بدومينيك من تغيير، فما زال عريض المنكبين، رشيقاً، لكن بعض التجعدات ظهرت حول عينيه وعلى زوايا فمه، ورقّت وجنتاه، وأصبح لونه داكناً. أما شعره الأسود الكثيف الذي عبث الهواء به فلم يتبدل، وما زال متضارباً مع زرقة عينيه. حاجباه وأهدابه عكست جاذبيته المقلقة، تماماً كما يشعر الانسان بالقلق والاضطراب، حين يكتشف شيئاً عزيزاً عليه ومألوفاً لديه في ديار

غريبة. قطع تأملها صوته قائلاً:

ـ لقد حضرت زواج تشارلي يوم السبت الماضي، وقد سافر الى جزر البهاماس لقضاء شهر العسل. أما هيلين فذهبت مع والدتها الى جزيرة مايوركا لقضاء عطلتها (اجابها ببرود ثم انحنى ليحدق بها وقد قلص عيناه) رأيتك قبل الآن أليس كذلك؟

سحقها غضب ساطع لأنه لم يعرفها للوهلة الأولى كما عرفته هي. ولو انه لم يمسك ذراعها بشدة، لولّت الفرار عائدة من حيث أتت. ثم اردف:

ـ انتظري. . . إما أنّ ذاكرتي تخونني، أو انك تبدلت كثيراً (رفع بيده خصلة من شعرها الأشقر) شقراء. . . (ارتسمت ضحكة خفيفة على شفتيه) انك آلين اقصد آلي مورتن. لم اتوقع رؤيتك في هذا الوقت من العام، هل انت في اجازة هنا؟

ـ نعم (اجابته بقسوة) ولعدة ايام.

ـ وهل تقيمين في مكانك المعتاد؟

ـ نعم.

سحبت ذراعها من قبضته، ودست يديها في جيبيها.

ـ مع والديك؟

ـ لا. . . مع صديق. . .

اجابها ببرود:

ـ وهل احسنت اختيار المكان بقدومك الى هنا في هذا الجو السيء؟

وقبل أن يتم جملته، هبّت عاصفة محملة بحبات البرد تناثرت على ظهر السيارة، فالتفتا وقد احنيا رأسيهما، وأخذا يبحثان عن مكان يقيهما حبات البرد. ذهبا الى جدار قرب السلم، لكن حبات البرد تبعتهما فقال دومينيك:

ـ من الأفضل أن تدخلي قليلاً الى القلعة حتى تهدأ العاصفة.

اجابت محاولة الاعتراض:

- لا.

- لا تتصرفي كالأغبياء، فلن تتمكني من العودة أثناء العاصفة. وقد تغوصين في الماء. اصعدي...

اقتنعت ألين بذلك، وبدأت تصعد السلم وهي تسمع سعاله وهو يتبعها.

دخلا حجرة كانت فيما مضى القاعة الرئيسية للقلعة. جلدها السيد هيو بحذر، وترك قطع السجاد الأثرية والدروع والسيوف معلقة على الجدران الحجرية، ولكنه وضع فيها أثاثاً مريحاً، كمنضدة طعام طويلة ضيقة، عوارضها ضخمة، وكراسيها عالية الظهر.

أشار لها دومينيك بصوت أجش، بعد أن هاجمه السعال ثانية بأن تنعطف الى اليمين، فدخلا مطبخاً تتلألأ فيه القدور النحاسية المعلقة على الجدران تحت أنوار الكهرباء. وقفت ألين تنظر بتردد الى هذا المكان الذي ضمها ورفاقها مرات عدة منذ سنوات خلت، حيث تناولوا الكثير من وجبات الطعام قبل أن يشرعوا في ركوب الخيل، أو السباحة، أو تسلق الهضاب. لكن المطبخ بات أقل تألقاً مما كان عليه عندما كانت جيني دونالد مسؤولة عنه في عهد السيد هيو. لكن دومينيك ترك في حوض الماء بعض الأطباق المتسخة.

- لم ارتب المطبخ بعد تناول طعام الافطار، اذ لم أتوقع زيارة احد هذا اليوم.

تحدث دومينيك بلهجة ساخرة، وهو يرمي سترته المصنوعة من جلد الغنم على الكرسي. لا شك ان أناقته رائعة ومتقنة وأردف:

- اجلسي. اتريدين قهوة أم شراباً؟

- لا اشكرك. يجب أن اعود الآن، لأن المد سيغمر الطريق، وسأحجز هنا وربما حتى صباح الغد الى ان ينحسر المد ثانية.

لمعت عيناه بتألق ساخر:

- هكذا اذن! وهل في الأمر ما يقلق؟ احقاً لا ترغبين في تناول الشراب؟ انه شراب العم هيو وجدته في القبو، وأشعر بالدفء عندما

احتسيه، لأن دمائي تأثرت بالمناخ الاستوائي، ولا اعلم لماذا اشعر بالبرد هنا.

- لا. اشكرك.

سكب دومينيك قدحاً لنفسه، واستند الى المائدة وهو يحدق اليها ببطء، وكأنه يقيّمها.

- لقد نضجت كثيراً. تبدين أطول وأرشق مما كنت عليه. ولهذا لم اعرفك للوهلة الأولى. ولكن اما زلت بريئة كعهدي بك منذ اربع سنوات؟

حاولت ألين الاحتفاظ بهدوئها، على الرغم من أن نظراته بدت خلف زجاج الكاس الذي يمسك به لامعة، وكلها تحدّ تثير الغضب، فشدت على قبضتيها وأخفتها في جيبيها. احتسى شرابه، وسكب لنفسه كأساً أخرى، فقطعت ألين حبل الصمت وسألته بأدب:

- متى أتيت الى اسكوتلندة؟

- منذ اسبوعين لأحضر زفاف تشارلي. هل تعلمين أن عمي هيو اوصى لي بهذه القلعة قبل وفاته، مما أثار حنق ابنة عمي. لم يخف سروره لاستيائها.

- وهل ستستقر هنا بشكل دائم؟

- لست متأكداً فالموضوع يعتمد على مدى ملاءمة الطقس لي، فأنا لا احب الطقس الرديء. (قطعت نوبة من السعال الحاد حديثه). آسف، إن هذا السعال يدفعني لتناول الشراب بكمية أكبر. لقد اصبت بالانفلونزا عندما وصلت الى غلاسكو ولم أتغلب عليها بعد.

- التزم فراشك كي تشعر بالدفء.

لكنها ندمت على اقتراحها هذا، اذ خشيت أن يفهم خلفياته. فلماذا تهتم به عندما يصاب بالسعال؟ وهو انسان اناني أساء معاملتها، كما أساء معاملة شقيقتها، ولم يبال بشعورهما.

- إن اقتراحك مفيد إذا وافقت على الاعتناء بي.

اجابها بنظرة ساخرة.

- اعتقد بأنك مصاب بفقر الدم يا دومينيك. انني جادة فيما أقول.
- وأنا جاد ايضاً. ابقي معي، فان وجودك معجزة شفائي.

كزت اسنانها لتكبح موجة الاهتياج التي داهمتها من هذا العرض ولم تجبه.

- افهم من صمتك ان لا رغبة لك في تنفيذ ما أقول.
- طبعاً لا... فما زلت أذكر ما فعلت بكاتريونا.
- إذن أنت تغارين منها.
- لا ابداً ولماذا اغار منها؟
- لأنها ذهبت معي الى لندن بدلاً منك.
- لكنني محظوظة كثيراً لأني لم اذهب معك فقد اسأت معاملة كاتريونا.
- انا؟ (رفع حاجبيه بدهشة) لا علم لي بهذا. اخبريني المزيد إذن، لقد احسنت معاملتها وفق ما اقتضته الظروف. انك تجسمين الأمر (سكب لنفسه كأساً آخر فراقبته بدهشة وأكمل) كيف لي ان اخذلها وليس لي علاقة بها، ولم أقطع على نفسي عهداً امامها، ولم اعدها بشيء. لكنني وافقت فقط أن أقودها الى لندن، ولست مسؤولاً عن تصرفاتها بعد ذلك؟
- لقد اخبرتني انها شاركتك السكن في منزلك لمدة ستة اسابيع.

حدق في وجهها وقد تقلصت مقلتاه مفكراً، وقطب جبينه وقال:

- عاشت معي انا؟! اعتقد انها اخبرتك انني على علاقة بها ايضاً، اليس كذلك؟ (رمقها بنظرة باردة وحادة، فهزت ألين راسها مقرة صحة كلامه) إن خيالها خصب ومبدع، ولديها القدرة على تجسيم الأمور، وهي كاذبة ومخادعة.

استاءت ألين من اتهامه هذا، وأجابته مدافعة عنها:

- لا، ليست كاذبة ولم تكن يوماً هكذا، ولكنها تثق بأنك احببتها، ولهذا دعوتها الى لندن.

- لكنني لم افعل. لقد طلبت مني مرافقتها، وانتظرتني قرب سيارتي على الشاطىء ذلك الصباح (نظر اليها بحدة مرة اخرى) واعتقد انك اخبرتها عن موعد سفري، أليس كذلك؟

هزت ألين رأسها بالايجاب.

- لماذا تقول انها طلبت منك أن تتصل بها في لندن. لقد اخبرتني انك رجوتها أن تفعل، ولكنك خدعتها، بل كدت تحطم حياتها.
- يا الهي. ما هذه المسرحية؟ (ضحك بسخرية) قالت انها تريد الاجتماع ببعض اصدقائها الذين يؤلفون فرقة موسيقية. وعندما وصلنا الى لندن، اتصلت بهم فلم يرحبوا بوجودها، فاضطررت ان اجد لها مأوى اذ لا مال لديها، وريثما تقرر ماذا تفعل، أتعود أدراجها أم تبقى في لندن! (احتسى قليلاً من شرابه) كان عليّ أن اعيدها في القطار التالي الى ادنبره.

اضاف بحرارة، فأجابته بلهجة الاتهام:

- ثم تركتها ومضيت لشأنك؟
- لا... مكثت قليلاً حتى حان موعد سفري. ولما وجدتها هائمة على وجهها، طلبت منها أن تبقى في منزلي بعد سفري (تنهد بقلق) إن ملامحك تدل على أنها سردت لك قصة مختلفة تماماً. (هز كتفيه لا مبالياً) لا بد انها اخبرتك بأنني شخص حقير وتافه، استغليتها، ثم تخليت عنها، وانها ما زالت ضحية غلطة ارتكبتها في حقها اليس كذلك؟

احتسى ما بقي من شرابه ووضع كأسه على المنضدة. اخذت ألين تراقبه، وهي تتذكر منظر كاتريونا الحزين بعد عودتها من لندن، حين جلست كاتريونا في غرفة ألين ساعات عديدة، وهي تحدثها عن مغامراتها في لندن، وتصف فخامة منزل دومينيك، وعن سعادتها الغامرة التي لم تدم طويلاً. اذ ان حب دومينيك لها تلاشى بعد مدة قصيرة. وتذكرت ألين كيف حاولت أن تخفي غيرتها، وأن تؤاسي اختها، وتلاطفها لتزيل الآلام التي سببها دومينيك، عندما خذلها

تاركاً إياها دون مال أو اصدقاء في تلك المدينة الغريبة. مما اضطرها أن تتطفل على السيارات حتى وصلت الى ادنبره. قطع دومينيك حبل أفكارها بسؤاله:

- أين كاتريونا الآن؟
- لن اخبرك.
- لماذا؟
- لأنني لا اريدك أن تعلم أين هي!
- ومع هذا تدّعين بانك لا تغارين منها؟

اجابها ساخراً. لكن سخريته أثارت غضبها، ولم تستطع ان تكبح جماحه، فردت:

- ما زلت متعجرفاً مغروراً. كاتريونا بخير ما دمت بعيداً عنها. كما انني لن اطيل البقاء هنا.
- لو كنت مكانك لمكثت هذه الليلة فقط.

قال بصوت مرتفع ساخر وهو يتبعها، والسعال يدوي في انحاء المكان. لكنها انطلقت مسرعة من الغرفة. لم يفتح باب القلعة بسهولة. وما ان وجدت نفسها تحت قبة السماء حتى شعرت بالارتياح، وهي تصفق الباب بشدة متمنية أن يسمع دومينيك الصوت لعله يفهم شعورها تجاهه. وقد نعت اختها بالكذب، وادعى انه لم يؤذ مشاعرها.

لقد امضت وقتاً طويلاً في القلعة. لهذا هبطت السلم مسرعة فزلّت قدمها، وأخذت تنزلق على مؤخرتها. اضطربت قليلاً وارتبكت، ثم حاولت النهوض، لكن منظر الماء المتارجح تحت وطأة العاصفة اصابها بالذهول. لقد تأخرت جداً، وزادت العاصفة من منسوب المياه حتى غمرت الطريق. اتكأت على جدار القلعة لئلا تدفع بها العاصفة، وأخذت تتأمل المدينة التي بدت بعيدة جداً. لكنها لم تستطع أن تطيل النظر اليها، اذ حجبتها موجة جديدة من المطر. ها قد هزمتها العاصفة. ماذا تفعل، وكيف ستنجو من هذا

المأزق؟ ليتها ترى السيد ماكوبري أو زوجته. ترى هل يوافق على نقلها بقاربه وسط هذه العاصفة؟ لا، لن يفعل بل سينتظر هدوءها. نظرت حولها علّها تجد القارب الذي اعتاد أن يستعمله نزلاء القلعة. فوجدته مقلوباً رأساً على عقب، وقد علقت المجاذيف في اسفله، وتآكل خشبه وطلاؤه. لم تستطع أن تحركه، أو تدفعه الى فوهة الشاطىء لتنطلق به، كما انها لا تدري كيف تشق عباب الماء المائج. لا بد انها ستقع فريسة الأقدار فتتقاذفها المياه والرياح. ومن يدري قد تضطر أن تسبح كي تنقذ حياتها. اذن عليها الرضوخ للأمر الواقع. لقد احتجزت فوق الجزيرة، وعليها العودة ثانية الى القلعة، وتخبر دومينيك بذلك. تقلصت شفتاها وهي تتخيّل اشعاع نظراته الممزوجة بسرور ساخر. ليتها تتحاشى لقاءه.

صعدت السلم هذه المرة بحذر، ثم قرعت الباب وانتظرت، ولكن ما من مجيب، فدفعت الباب بشدة، وعادت أدراجها الى المطبخ. اخذ ضوء النهار يتلاشى مما زاد من ظلام القاعة، فسرّت بتلألؤ أنوار المطبخ. ولكنها لم تجد دومينيك ولا زجاجة شرابه. عادت الى الممشى، ووقفت عند السلم الخشبي ونادت:

- اين انت يا دومينيك؟

لم تسمع الاّ صدى صوتها وهي تكرر النداء وأيقنت ان دومينيك قد نام. لم تقترب من غرفته تحسباً، بل مكثت في المطبخ، وأخذت تنظف الأطباق بعد أن خلعت وشاحها وسترتها، ووضعتها فوق سترته. نظرت الى الهاتف، فقررت أن تخبر السيدة ميتلاند وجورج بما حدث، ولكن لسوء الحظ، كان خط الهاتف مقطوعاً، مما زاد من استيائها. تابعت عملها، وهي تفكر انه ما من وسيلة للوصول الى اردغور الا بعد مضي سبع ساعات اخرى حتى ينحسر المد مرة اخرى تمام الساعة الثانية والنصف صباحاً. اي انها تستطيع العودة بعد الثانية صباحاً متى شاءت. لكن السيدة ميتلاند ستقلق كثيراً من اجلها، وقد تقوم ببعض الاجراءات خشية أن تبقى ألين هائمة على

وجهها دون مأوى، فترسل ماكوبري ليبحث عنها . سرّها هذا الخاطر، وابتسمت وهي تجفف الأطباق مصممة على أن تتحلى بالصبر، وتبقى في المطبخ المجهز بما تحتاج اليه من طعام وانارة ودفء بينما ينعم دومينيك بنوم هادىء في غرفته.

وما أن وضعت الابريق على النار، حتى اجتاحت النافذة عاصفة تراقصت الأنوار تحت وطأتها، ثم عادت الى استقرارها. ولكن عاصفة أخرى سببت انقطاع التيّار، فالتزمت ألين الهدوء، ودهشت من الظلام الدامس الذي زادت الغيوم الكثيفة من شدته. وتمنت أن يسمع دومينيك نداءها، ليخبرها عن مكان الشموع. رفعت الابريق عن النار، وشقت طريقها بحذر الى الممر بمساعدة خيوط ضوء رمادي تسللت الى القاعة من نوافذها. وبما انها لا تعرف المكان جيداً، فقد خشيت أن تصطدم بدرع ما، أو بقطعة اثاث. لهذا تسمّرت في مكانها. وفجأة سمعت صرير باب احدى الغرف ممزوجاً مع صوت الرياح، فسرت قشعريرة في جسمها، وانتصب شعر رأسها هلعاً فصرخت:

ـ دومينيك أهذا انت؟

لكن زئير الرياح حال دون سماعها الجواب. وما ان هدأت ثائرته، حتى سمعت خطوات تسير ببطء في الطرف الآخر من الغرفة، فهتفت ثانية:

ـ دومينيك اين انت؟ انا الين، لقد عدت اذ غمر المد الطريق، وانقطع التيار الكهربائي الآن.

ـ حسناً ولماذا لم تخبريني؟ افزعتني وأنت تنادين، والظلام دامس.

ـ آسفة، ناديتك عندما عدت، ولكنك لم تسمع ندائي.

ـ كنت في غرفة الجلوس. أين انت الآن؟

ـ هنا بالقرب من المطبخ.

وما ان اتمت كلامها، حتى سمعته يتكلم باللهجة البرتغالية مهدداً.

ـ ماذا حدث؟

ـ لقد اصطدمت باحدى الدروع.

وما لبثت ان سمعت صوت الارتطام بالدرع اذ ركله بقدمه.

ـ وهل اصبت بأذى؟

ـ لا اعتقد. ان اصابة الدرع أفدح من اصابتي.

اقترب منها، واستطاعت ان تميز في الظلام جسمه الأسود، فقال مداعباً وهو يقف الى جانبها:

ـ اذن، ستمكثين هذه الليلة هنا شئت ام ابيت! اين ستنامين؟ هل ستقاسم فراش غرفة النوم الرئيسية حيث سنشعر بالدفء؟ ام ستنامين في احدى غرف الضيوف؟ شعرت بأنفاسه تلفح وجهها، وبه يقترب منها، فلمست خطورة الموقف خاصة عندما تذكرت ما جرى بينهما عند لقائهما الأول، وأدركت ان عليها الابتعاد عنه، لئلا يستغل الموقف، فنظراتها الملتهبة كانت واضحة. قالت هامسة:

ـ اريد ان اخبرك يا دومينيك. انني مخطوبة وخطيبي ينتظرني في منزل الضيافة (آه وصرخت عندما امسك ذراعها بقوة) ماذا تفعل؟ حاول أن يمسك بأصابعها كي يتأكد من وجود خاتم الخطوبة، فشدت يدها لتتحرر من قبضته، لكنه أطبق أصابعه وهو يقول:

ـ اين الخاتم؟ اذن ليس الأمر جاداً.

ـ حسناً ان خطوبتي...

ـ لست متأكدة من الخطوبة؟

ـ دع يدي!

ـ احب ان امسك يدك لأشعر بالأمان، وأنا قابع في الظلام. اخبريني عن خطيبك! ما اسمه؟

ـ جورج لوسن.

ـ وأين تعرفت عليه؟

ـ في العمل. انه احد اعضاء رابطة المحامين، حيث اعمل منذ عامين.

- وهل تحبينه؟

- انه امر خاص ولا يحق لك ان تسألني.

وحاولت ان تتخلص من قبضته.

- اذن لماذا ترغبين بالزواج منه؟

- لأنه طلب مني ذلك، ولأن ابنتيه بحاجة الى ام (نسجت قصة ما) اترك يدي الآن.

وبدلاً من ذلك جذبها اليه، وطوقها بذراعيه قبل أن تتمكن من ان تبعده عنها.

- اذن، انت ترثين لحاله (هزت أنفاسه شعرها) ولكن الرثاء وحده لا يعتبر سبباً رئيسياً للزواج. اقصد ان فتاة مثلك انت، لن ترمي نفسها في تلك الشباك.

- انني لا ارثي لحاله، ولكنني معجبة به واحترمه.

- اعتقد انك تلتمسين فيه شخصية الأب لا الزوج. حيث تشعرين بالأمان والاطمئنان وأنت معه. كما انه لم يقبلك أثناء لقائكما الأخير.

- دعني كفاك هزءاً بي (صرخت وهي تحاول آن تحرر نفسها من ذراعيه اللتين طوقتاها بحزم) اعتقد انك متأثر بشرابك.

- ليس الشراب ما يؤثر بي، لكنني متأثر برائحة شعرك وهو يتموج امام وجهي، وبقربك مني. لم ار كثيراً من النساء في مكان اقامتي، ولكنك اكثرهن جمالاً.

وعلى الرغم من الجهد الذي بذلته، كادت تنسى نفسها تحت وطأة هجومه وسرعان ما تذكرت ان من طبعه أن يأخذ ثم يختفي. همس في الظلام:

- انني اتذكر أول عناق لنا. كنت باردة. اتذكرين عندما كنا بين احضان نبات الخلنج، حيث سكبت الشمس علينا دفئها ودندن النحل بالقرب منا. وفي ذلك اليوم المشرق، علمتك كيف تعانقين. هل تذكرين؟

- لا... (صرخت وقد أثرتها الذكريات من الأعماق).

- كاذبة.

أتى انهامه الساخر كهمسة الأشباح في الظلام، وشعرت بيده وهو يشدها اليه.

- اني اكرهك.

قالت وهي تدفع صدره بقبضتيها محاولة أن تتخلص منه فسألها بدهشة:

- الأنني علمتك الحب؟

- لا انا... اعني اني...

لم تعترف انها كرهته بعد ذاك اللقاء بينهما، وبعد ما اصطحب اختها معه الى لندن.

- لم اشعر قط بانك تكرهينني، فلم تقاومي بل استجبت لي ولهذا ساكرر ذلك.

تسللت يده الباردة الى عنقها فسرى الدفء في جسمها وهمست جوارحها: لم تخافين من هذا الشعور؟ - جمعت قبضتها، وحاولت ان تصفعه، لكنه امسك يدها بحزم:

- لا تكوني عنيفة، ولا تصفعيني يا الين، فقد تصبحين بحاجة اليّ اكثر مما تعتقدين.

- لن تستطيع الآن انجاز ما تخليت عنه قبل خمس سنوات. انك تهدر وقتك سدى.

- الوقت الذي امضيه معك ممتع للغاية.

اجابها وهو يقربها اليه اكثر فأكثر. فقالت بيأس:

- يبدو انك لا تفهمني. فانا لا ارغب في الحب مع رجل لا احبه. لقد تجاوزت حبي لك منذ اعوام مضت. ان تصرفك معي الآن ومع كاتريونا من قبل ينم عن حقارتك. دعني وشأني، لا اريدك...

شعرت بالارتياح عندما افضت بما يجيش في نفسها. فلن يتجاوز

حدّه طوال وجودها معه في القلعة. وما أن انهت كلامها، حتى ابعدها عنه فشعرت بالزهو والانتصار، وقال بتنهد:

- مسكين يا جورج! ان قلبي ينزف دماً من اجلك.

- ولماذا؟

سألته بحدة والشك يغمرها، وقد بدأت تشعر بالبرد اذ ابتعد عنها، وما زال التيار منقطعاً.

- انه شديد الغباء اذ طلب الزواج منك!

- ما هذه الطريقة اللطيفة؟

- سأرى جورج لاسداء النصيحة اليه.

- وما هي هذه النصيحة؟

اهتزت اوصالها، وخشيت أن يلتقيا، فيكتشفا انها قد لفقت امر الخطوبة.

- اريد أن احذره من انك لن توفري له الراحة المنشودة.

- لم افهم ماذا تقصد؟

- لقد اخبرتني لتوك بانك لا تقبلين الحب الا مع رجل تحبينه. وانا واثق من انك لا تحبين جورج.

- أوتظن انك تعلم كل ما في الوجود؟ (اجابته بغضب، وعندما سمعت خطواته تبتعد في الظلام سألته) الى اين ستذهب؟

- بعيداً عنك يا من لا تستجيبين للعواطف، لقد اقنعتني ان لا حاجة لك بي.

- ليتك تخبرني اين اجد بعض الشموع.

- وهل تخافين الظلام؟

- اجل خاصة عندما اكون في مكان لا اعرفه.

- اذن، امكثي مكانك، وسأعود لنوقد ناراً في موقد غرفة الجلوس

حيث ستشعرين بالدفء، سوف تنامين فوق الأريكة ريثما ينحسر المد، وتستطيعين عبور الطريق ثانية.

٢- مخالب التنين

انتظرت ألين عودته في الظلام، وعقدت يديها على صدرها كي تشعر بالدفء. بدا لها الوقت طويلاً، وما لبثت ان رأت بصيص نور يتلالأ، وسمعت خطوات دومينيك تقترب منها، وهتف قائلاً:

- لقد وجدت بعض مصابيح الزيت، امسكي هذه الشعلة، واتبعيني الى المطبخ.

وبعد عدّة محاولات نجح دومينيك في انارتها، ثم سألها بصوت بارد جاف.

- هل تعدّين لنا شيئاً نأكله؟ لدينا الكثير من المعلبات هنا، كما يوجد في الثلاجة بعض الحليب والفاكهة. سأذهب لأحضر الحطب من القبو، وأضرم النار في الموقد.

وجدت ألين الكثير من الزبدة والخبز، وفتحت علبة من اللحم، حضرت الطعام وأتبعته بسلطة الفواكه أضافت اليها قليلاً من الكريما الطازجة. وبعد ان تناولا الطعام، رتبت ألين المكان، ونظفت الأطباق، بينما ذهب دومينيك الى القبو، وقام بتقطيع الأخشاب بحجم يناسب الموقد.

مضت ألين الى غرفة المكتب تستضيء بنور المصباح وقد أعجبت بتصرفات دومينيك العملية وتكيفه مع الظروف. اذ انها رسمت في مخيلتها صورة له تخالف هذا الواقع، وفق ما أخبرتها هيلين. ظنت أن دومينيك شاب لعوب غني وأنيق، لا يستطيع انجاز الاعمال اليومية المعتادة، ومنغمس في دراسة علوم الانسان تلبية لرغبة والديه من جهة، وارضاء لنفسه بالسفر الى مناطق نائية.

أغراها نور المصباح المختلط بأنوار متوهجة منبعثة من الموقد، في أن تدخل غرفة المكتب التي كانت تخص السيد هيو فيما مضى. فوجدتها مريحة للغاية حيث اخذت النيران تضطرم في موقدها الكبير، وبالقرب منه وضع مقعدان طويلان غطي كلاهما بقماش مطرز، وفي الطرف المقابل لهما، وضع كرسيان من القماش نفسه، بينهما منضدة منخفضة وضع دومينيك عليها المصباح الثاني، وقد غص المكتب الموضوع عند النافذة بالدفاتر والكتب، كما جهزت الآلة الطابعة باحدى الأوراق.

تفحصت ألين الكتب وما زال المصباح في يدها. وكم كان سرورها بالغاً عندما وجدت بعض الكتب لمؤلف مفضل لديها. اختارت احداها، واتجهت الى الاريكة حيث قبعت في احدى زواياها القريبة من الموقد. ثم قربت المصباح كي تستطيع القراءة، وسرعان ما استغرقت في مطالعة الكتاب حتى انها لم تعد تسمع صوت احتراق الحطب، اذ انها عادت ادراجها الى القرن السادس عشر، تتابع بفضول مغامرات احدى الشخصيات الروسية التاريخية.

وفجأة تنبهت الى صوت حطب جديد يوضع في الموقد. رفعت

رأسها لترى دومينيك يضع فوق الجمر المتوهج الأخشاب لتلتهمها ألسنة اللهب، مرسلة أنوارا برتقالية متلألئة في الغرفة. أعاد حاجز الموقد، وأمسك باطاره وهو يحدق بالنيران الملتهبة لكنه شعر بأن ألين تراقبه، فنظر اليها، وفاجأها بسؤاله:

- هل تشعرين بالدفء؟

- نعم! شكراً لك.

- هناك المزيد من الحطب بالقرب من الموقد (قال بصوت أبح ووضع يده على فمه، وقد انتابته نوبة جديدة من السعال). ان هذا السعال يزعجني، لهذا سأذهب الى فراشي.

- أوه... لقد ظننت...

لم تشأ متابعة كلامها فصمتت.

- وماذا ظننت؟

- لا شيء (منعها كبرياؤها من اخباره بانها تخشى البقاء بمفردها فاردفت) انني آسفة لسوء صحتك، هل استطيع ان اسدي لك خدمة؟

بدت نظرته براقة من خلال اهدابه وهو يقول:

- لقد اخبرتك عمّا أريد، ولكنك لا ترغبين بذلك (اجاب بجفاء وابتعد عن الموقد متجها نحوها) هل تريدين ان ابقى معك هنا؟ (أضاف وكأنه قرأ ما يجول في خاطرها).

فاجابته بعناد:

- اذا كنت ترغب في ذلك؟

- أجيبي بوضوح نعم أم لا؟

- اذهب الى سريرك، فقد تشعر براحة أفضل هناك. أما أنا فسأتدبر أمري هنا...

- اذن ما الذي تريدينه؟

- أخشى الاّ استيقظ في الوقت المناسب لاجتياز الطريق.

- سأحضر لك منبهاً.

خرج من الغرفة بينما عاودت ألين المطالعة، ثم عاد بعد عشر دقائق يحمل منبهاً وزوجاً من الأغطية الصوفية، فشعرت من تسارع انفاسه بأن السعال قد هاجمه للتو فقالت:

- ألا تتناول ما يخفف من حدة هذا السعال؟

- لا (أجابها دون أدنى مبالاة) ومتى تريدين الاستيقاظ؟

- الساعة الثانية والنصف صباحاً. عليك بزيارة الطبيب يا دومينيك.

- هل تظنين بأن ذلك ضروري؟

أزعجها جوابه، لكنه وضع المنبه على رف الموقد، والغطاء على المقعد وقال:

- ان هذا الغطاء سيكسبك دفئاً، كما أني سأبقى هنا، فالبرد لا يحتمل في الطابق العلوي.

- هل تريد الاستلقاء هنا؟ (قالت وهي تخفي سرورها بوجوده في الغرفة).

- لا شكراً. سأجلس هنا على المقعد وأمدد ساقيّ. انظري الثلج يهطل.

- لكنه لم يترك أثراً لأننا قريبون من البحر.

استلقى دومينيك مسترخياً، وقد غطى نفسه بالغطاء الصوفي وأغمض عينيه، فنظرت اليه قلقة لأنه لا يهتم بسعاله، ولكن لم تهتم به؟ حاولت أن تعاود مطالعة القصة، ولكنها لم تجذبها هذه المرة. أشارت ساعة يدها الى العاشرة والنصف وما زال الماء مرتفعاً، وسيبدأ الانحسار بعد ساعة تقريباً. اطمأنت لوجود المنبه، فاستسلمت لمداعبة الكرى. كانت أنوار الموقد تعكس ألواناً براقة على وجه دومينيك فتساءلت ألين في أعماقها عما ستقوله كاتريونا عندما تعلم أنها قضت الليل في القلعة. وهل ستفكر بوسيلة لزيارة دومينيك؟ كما فعلت منذ خمس سنوات خلت، عندما أتى دومينيك لزيارة عمه لمدة ثلاثة أسابيع من شهر آب. لقد عاد دومينيك الى

كتف عمه الذي يهيم به. فهو ابن اخيه الوحيد الأنيق الذي اكتسب سمرة ذهبية بفضل المناخ الاستوائي. لقد انطلق دومينيك في سماء اردغور الصافية وكأنه زائر من العالم الآخر! فقلب حياة ألين الهادئة رأساً على عقب. كانت ألين وأختها كاتريونا في ذاك الوقت فتاتين يافعتين في سن المراهقة، فجذب دومينيك بتصرفاته ولباقته كلتيهما، على الرغم من لا مبالاته التي اكتسبها خلال أعوامه التسعة والعشرين.

كانت كاتريونا قصيرة ذات شعر بني غامق متجعد، لطيفة ورقيقة المعشر مفتونة بدومينيك. استغلت صداقتها لتشارلي وهيلين كارسيترز التي دامت ست سنوات، وأخذت تزور القلعة كل يوم اثناء وجود دومينيك عند عمه، كي تلتقي به وتحادثه.

أما ألين فقد منعها خجلها من التصرف كما يملي عليها اعجابها، فكثيراً ما التزمت الصمت اثناء وجودها مع دومينيك في الغرفة نفسها. وان لم تستطع ضبط أنفاسها، او السيطرة على تسارع نبضها، او التخفيف من ألم معدتها عندما يدخل الغرفة. لاحظت ألين بعض التغيرات التي طرأت على كاتريونا بعد انتهاء عطلتها الممتعة في المرتفعات الاسكوتلندية. وبدأت كاتريونا تفضي اليها عما في ذاتها عقب عودتها متأخرة مساء كل يوم، الأمر الذي أقلق والدها. اذ اعتادت الخروج بصحبة المصطافين في اردغور تارة الى مراقص كلينكوري، وأخرى الى النزهات الحالمة تحت اشعة القمر على الشواطىء للتمتع بالطقس الجميل. وفي احدى الليالي رفض الكرى ان يداعب اجفان ألين، فاستلقت على سريرها في غرفتها المشتركة مع كاتريونا في بيت الضيافة، فسمعت صوت محرك السيارة، فقفزت من سريرها ورأت من النافذة كاتريونا تدخل باب الحديقة، بينما غاصت في الظلام مؤخرة سيارة بيضاء عرفت أنها سيارة دومينيك. وفي تلك الليلة بالذات، ذاقت ألين مرارة الغيرة، بينما نعمت كاتريونا بنوم هادىء. لم تكلمها ألين في الصباح، بل

اخبرت صديقتها هيلين ان كاتريونا امضت السهرة بصحبة دومينيك لاينش. لكن هيلين اجابتها بدهشة:

ـ لقد لاحظت اعجابها به لكنه لا يعيرها اهتماماً. أرى أن تحذريها منه.

ـ ولماذا؟

ـ لأن أمي ـ تثق به، مع انه لا علاقة لنا به. إنّ اباه أخ لجدي ايوان. كان أبوه مكتشفاً يذهب الى أماكن نائية كي يدرس قبائل بدائية، وقد أمضى معظم أوقاته في أميركا الجنوبية، وتزوج من سيدة برازيلية تبحث في العلوم الانسانية. وقد وضعت دومينيك في ريودي جانيرو، فترعرع هناك حتى بلغ الرابعة عشر من عمره، ثم اختفى والداه.

سألتها ألين بدهشة:

ـ وكيف حصل ذلك؟

ـ ان هذا امر طبيعي في البرازيل. فقد ذهبا الى احدى الغابات ولم يعودا. لكن جدي ذهب الى ريو وعاد بدومينيك الى هنا، وأرسله الى مدرسة داخلية في انكلترا، ثم إلى الجامعة حيث درس العلوم الانسانية تنفيذاً لوصية والديه. وبما انه مغرم بالاكتشافات كوالديه، فانه يحذو حذوهما الآن، ويسافر في رحلات استكشافية.

ـ ولماذا تكرهه والدتك إذن؟

ـ لأن جدي شغوف به، فهو ذكر ويحمل اسم العائلة. ستفقد والدتي صوابها اذا علمت بوجوده هنا. لأنها تخشى أن يغيّر جدي وصيته.

ـ كيف ولماذا؟ ـ فوجئت ألين بسماع هذه القصص العائلية.

ـ سيحصل دومينيك على نصيب وافر من الثروة التابعة لجدي. ومن الواضح انه سيرث القلعة فانها تؤول الى الذكر البالغ من عائلة لاينش. ان والدتي لا تحب القلعة، ولكنها تخشى ذلك. كما انها تتذمر دوماً من طراز معيشته، فهو يستأجر شققاً فخمة، ويستضيف

صديقاته. هل فهمت ما أقصد؟ (قهقهت هيلين وهي ترتكز الين بكوعها) وأعتقد ان كاتريونا تتوقع أن تصبح فتاته التالية.

لم تخبر ألين كاتريونا بما دار من حديث حول دومينيك، فقد كانت مأخوذة بعواطفها المضطربة نحوه، وزاد حديث هيلين من اعجابها به. وكم راودتها أحلام وردية نسجت منها عالماً جميلاً. اذ حلمت أنها أصبحت صديقته عوضاً عن كاتريونا، وأنه مفتون بجمالها وجاذبيتها، ويحبها، كما يريد الزواج منها لينعما بالسعادة والهناء. لكن الخيال لم يغد حقيقة لأن خجلها منعها من اتخاذ الخطوات الايجابية الأولى. كانت تنتهز فرصة لقائه بمفردها. وشاءت الظروف تحقيق ذلك. ففي عصر يوم مشمس، اتجهت ألين الى القلعة لتقنع هيلين وكاتريونا بأن يتسلقا هضبة بين ليكي معها. تلك القمة الشامخة التي ترتفع عند الشاطىء الجنوبي للبحيرة والتي اعتادوا ان يتسلقوها كل عام.

وما ان وطأت قدمها حجارة الممر، حتى قفز قلبها بين أضلعها اذ رأت دومينيك طويلاً، أنيقاً، يعدو فوق الحصى والحجارة التي تفصل الماء عن الشاطىء. ها هو يقترب منها بمفرده. انتظرته بقلب واجف ووجنتين ملتهبتين. وقف أمامها بسرواله الجينز، وقميصه الأحمر الداكن، وقد وضع يديه على اردافه. وبينما كانت دقات قلبها تتعالى، نظر اليها بعينين تماثل زرقتهما زرقة الماء في ذلك اليوم وقال:

- اهلاً وسهلاً... هل تبحثين عن هيلين؟ لقد ذهبت مع عمي هيو لحضور حفل افتتاح مباريات المرتفعات. ليتك قدمت قبل قليل، فربما شئت مرافقتهم.

- وهل ذهبت كاتريونا معهم؟

- لا أعلم. لم أشاهدها.

هزّ كتفيه وكأنه لا يأبه لها، ونظر الى سيارته، ثم اليها وكأنه يريد ان تبتعد عن طريقه. أخذت تنظر الى جماله فقاطع افكارها قائلاً بصوت عذب سحرها:

- يبدو انك مستاءة.

- اجل. اردت اقناعها لتسلق الهضبة معاً... اذ اعتدنا ذلك كل صيف قبل انتهاء العطلة.

- وهل بين ليكي هضبة؟

- أجل... انظر هناك.

- وكم يبلغ ارتفاعها؟

- حوالى الف وخمسمائة قدم. ليست شديدة الارتفاع. (خشيت ان يسخر منها، فربما اعتاد تسلق هضاب اعلى منها). ان منظر أوترهيبرايدس رائع في مثل هذا الطقس الجميل هذا رأيي الشخصي.

- تسرني مرافقتك.

أجابها ببساطة وهو ينظر اليها نظرات ذات معنى، فأخذت عروقها تنبض باضطراب.

- وهل تعني انك ترغب بتسلق الهضبة معي؟

- تماماً. وهل توافقين؟

- أجل.

وفجأة رقص العالم بأسره من حولها براقاً متلألئاً، وازدادت زرقة وصفاء الماء في ناظريها، وبدت القلعة كأبراج القصص الخيالية بأحجارها اللامعة حيث يغدو الحلم حقيقة. ازدانت الهضاب بالحلل السندسية المطرزة بالألوان الزهرية والصفراء، وبدت السهول مطعمة بالظلال الزرقاء. سارا بين أحضان غابات الصنوبر التي غطت سفوح الهضبة، يلفهما صمت مطبق. فلم يسمعا صوت عصفور ما، بينما تخللت أشعة الشمس الذهبية الأغصان الخضراء. وكلما ازداد انحدار السفح، قلّت الأشجار وتعرّج صفها، وتناثرت المروج الخضراء حول الصخور الكبيرة. قطع دومينيك حبل الصمت الذي يخيم عليهما بسؤاله:

- هل يضطجع أهل المرتفعات بين أحضان نبات الخلنج هذا؟

- أعتقد... ولكن ما زالت سوق النباتات غضة الآن.

وكم كانت دهشتها عظيمة عندما استلقى دومينيك مسنداً رأسه الى راحتيه وقال:

- ما أروع المناظر (تشدق بكسل) انه مكان رائع للنوم.

جلست ألين الى جانبه ونظرت الى البحيرة من خلال نبات الخلنج، وقد بدد أزيز النحل وهو يستنشق شذى الأزهار المتكورة على شكل أجراس، السكون المهدىء للأعصاب. وتناهى الى سمعها أيضاً ثغاء نعجة من أعلى الهضبة. لكنها لم تنعم بالهدوء هذه المرة. فقد اختلج في اعماقها شعور أخذ يؤرقها، فنظرت ببطء من حولها الى دومينيك الذي كشف قميصه المفتوح عن عظام صدره المغطاة بكتل من الشعر لوحتها الشمس، فراقها منظره، واجتاحتها رغبة في لمسه، والاستلقاء الى جانبه. وما ان فتح دومينيك عينيه، حتى تضرجت وجنتاها خجلاً، وأشاحت بوجهها عنه اذ أدرك أنها تتفرس به. فسألها بلهجة عادية:

- كم عاماً تكبرك كاتريونا؟

- ثلاثة أشهر فقط.

فهب جالساً وبدت الدهشة في عينيه.

- أتمزحين؟

- لا لقد أنهت كاتريونا عامها الثامن عشر في تموز الماضي. أما أنا فسأتمه في شهر تشرين الاول.

شعرت ألين بالتباس الأمر عليه، فانفجرت ضاحكة وهي تشرح له.

- انا شقيقات. اعتقدت انك تعلم ذلك.

- لا لم يخبرني أحد (نظر الى شعرها ثم الى وجهها) ولكن فارق الشبه بينكما أقلقني. فكاتريونا سمراء، وأنت بيضاء كأميرة الثلج.

أشاحت بوجهها عندما سمعت كلماته الأخيرة تذوب رقة وعذوبة. وقالت:

- التقت والدتي بوالدها منذ سبع سنوات، وبما أنهما أرملان، ولكل منهما ابنة واحدة، فقد قررا الزواج.

- وهل حقق زواجهما ذاك النجاح المتوقع؟

- أجل. لقد أصبح لي أب، كما ربحت كاتريونا أماً.

- إذن ما زلت طالبة مدرسة.

- لا تركت المدرسة في نهاية شهر تموز.

- وماذا ستفعلين؟ هل ستتزوجين؟ قال بصوت ساخر.

- لم أقابل الشخص المناسب بعد. وأصر على ان مستقبل المرأة المهني، اهم من زواجها.

- وما هي المهنة التي ترغبين بممارستها؟

- المحاماة، ولكن بما ان التمرين يستغرق وقتاً طويلاً. لهذا سأسجل دورة لأتدرب على أمور السكرتارية. وأحاول ايجاد عمل في مكتب أحد المحامين. وعندما اكتسب خبرة معينة، وأجمع بعض المال، سأدخل الجامعة لنيل الشهادة.

وكان دهراً قد انصرم وهي ما زالت تشرح له عن توقعاتها وآمالها دون ان ينبس دومينيك ببنت شفة، نظرت اليه فوجدت عينيه مغلقتين، وكأنها هدهدت له كي ينام. انزعجت كثيراً، ونهضت بعصبية واقفة، فتنبه لحركتها، وفتح عينيه فقالت بحدة:

- انني واثقة من أنك لا تهتم بي.

وبسرعة ركضت باتجاه المنحدر، تتلوى مع الخلنج، وتستمتع بالهواء المنعش وهو يداعب وجنتيها، وصوت النسيم يصافح مسامعها، ثم ما لبثت ان تعثرت فوقعت. حاولت ان تنطلق ثانية، الا ان دومينيك الذي هرع خلفها، سحبها اليه ممسكاً بها بحزم. أحرقت راحتاه خصرها، وقفا يتأملان احدهما الآخر بنظرات فضولية، وأنفاس متهدجة. فتدفق داخلها احساس رائع. كم تمنت مثل هذا اللقاء. فما بالها تخشاه الآن؟

دفعت رأسها الى الخلف لتعترض على هذا القرب الشاعري،

لكن الكلمات تلاشت فوق الشفاه وبدت نظرات الوعيد في عينيه:

- سأريك مدى اهتمامي بك.

وانهال عليها يعانقها فانطلق أنينها ممزوجاً بخوف من أحاسيسها التي أيقظها دومينيك في أعماقها. حاولت ان تعود الى هدوئها. وفي الحال ابتعد عنها ونظر اليها بارتباك:

- يا إلهي ألم يعانقك أحد قبل الآن؟

ودون ان تعلم، وبارتباك كبير بدأت ترتجف، واشاحت بوجهها عنه اذ شعرت أنها ما زالت يافعة. فأخذ يداعب ذقنها بأنامله، ويلمس وجنتيها براحتيه، فسرت الراحة في أوصالها:

- هل تريدين ان نجرب ذلك ثانية يا آلي؟

ولأول مرة سمعت اسمها مختصراً بطريقة جميلة، اكسبتها ثقة بنفسها، فتلاشى خجلها، وحامت نظراتها حول وجهه معلنة عن رغبتها. اختلف الأمر هذه المرة، فقد انزلقت بنعومة بين ذراعيه وتدفقت عذوبة في عظامها. اسلمت نفسها كلية إليه وأخذت لمساته الشاعرية تتسرب في داخلها... لكنه ابتعد عنها ومضى لشأنه.

تعلقت به وطوقته بذراعيها، فهمهم ببعض الكلمات التي لم تفهمها، ثم سحبها لتضطجع الى جانبه في رحاب الخلنج.

مضى الوقت وهما يستمتعان بشذى الخلنج، وأشعة الشمس الدافئة. وكل ما حولها جميل... جميل... لم تفكر في تلك اللحظات الا بسعادتها الغامرة، ودومينيك يغدق عليها مزيداً من حبه ولمساته السحرية. اجتاحتها رغبة فأحاطته بذراعيها وهي تهمس:

- أحبك يا دومينيك...

فظنت انه سيلبي مطالبها، لكنه أجاب بعنف:

- لا! انك لا تحبينني (ودفعها بقسوة عنه، ثم استوى في جلسته) ما زلتِ صغيرة جداً كي تدركي كنه الحب.

ثم نهض ورتب شعره براحتيه، وقال:

- حان وقت العودة. علي أن أذهب لأملأ سيارتي بالوقود، وأتأكد من سلامة العجلات. اذ اني سأغادر الى لندن باكراً صباح غد.

سيرحل غداً... مزقت الحقيقة فؤادها، فهبت وهي تلمس قميصها القطني:

- لا لن تسافر (اعترضت بعناد).

نظر إليها نظرة مليئة بالسخرية وقال هازئاً:

- لم آت لأبقى هنا الى الابد. وقد طال وجودي، فأنا لا أحب قضاء إجازتي بأكملها في أردغور، ولكنني أتيت الى هنا كي أرى عمي هيو، لأنه اراد مناقشة أمر خاص معي.

- هل لي ان آتي معك؟ إنني أجيد الطبخ والغسيل (رجته بيأس وهي تضع يدها فوق ذراعه).

- يا إلهي ماذا تقولين أيتها الفتاة (نفد صبره وفكر) ماذا تقولين بحق السماء؟ (ثم رقت لهجته فجأة وأردف) أنت فتاة ساحرة، وستصبحين امرأة فاتنة.

- انني امرأة ناضجة الآن (اعترضت بحماس).

- تظنين ذلك. ولكنني لا أقره (قال بفظاظة) لو كنت امرأة ناضجة، لاستطعت التمييز بين الحب الحقيقي والرغبة الحسية. إني لا أحبك.

- إذن لمَ فعلت ذلك؟

وانهال فيض من الدموع على وجنتيها فقاطعها قائلاً:

- إنك لا تحبينني، ولكنك ظننت ذلك لأني عانقتك الآن. وبعد مضي ساعات قليلة سترين أننا لم نتجاوز الحدود (خلل أصابعه بين شعره وهز يده بحركة وكأنه يريد تفسير شيء ما) كان علي ألا أعانقك، ولكنني لم أستطع كبح جماح نفسي، فقد نسيت أنك فتاة بريئة قد تأخذ الأمر على محمل الجد.

لم تسمع نهاية كلامه اذ ركضت مسرعة، وهي تحاول ان تلتقط انفاسها متجهة الى المنحدر. ولم تتوقف عن الركض الا في وسط

الغابة اذ حجبت دموعها أشجار الصنوبر المتلألئة تحت اشعة الشمس. وقفت لتمسح دموعها براحتيها، فخشيت ان يستشف احد ما حدث.

وبعد هذه الحادثة اختفى دومينيك. ولم تره او تسمع عنه حتى هذه الامسية بالذات. لكن الذكريات لم تفارقها قط، فقد أيقظ كوامن نفسها بعناقه، ومداعبته اللطيفة التي حرضتها على عرض نفسها عليه. ولم تنس المرارة التي عانتها حين رفض عرضها متخليا عنها.

وفي صباح اليوم التالي للقائها، لم تجد ألين كاتريونا في سريرها، ولم تحضر الى مائدة الافطار. فعلم الجميع أنها هربت الى لندن بصحبة دومينيك لاينش.

تنهدت ألين وهي تشعر الآن ومن جديد بالغيرة تمزق فؤادها، فقد حققت كاتريونا ما تصبو إليه. انها تكره دومينيك اذ فضل شقيقتها ذات الخبرة والنضج في هذا المجال. وبينما أخذت تعيد شريط الذكريات هذا دوى صوت دومينيك في الظلام هاتفاً، فتنبهت لشرودها، وعادت ثانية الى الحاضر فسمعته يقول:

- ماذا حل بك يا ألين؟ هل أنت مصابة بألم في معدتك مثلاً؟

فتحت عينيها فوجدته منحنياً بالقرب منها يتفرس في وجهها فأجابته بجفاء:

- لا . . لا شيء على الاطلاق.

- إنك أكبر كاذبة عرفتها. لقد كنت تئنين وتتلوين منذ نصف ساعة، وتدعين بأنك على ما يرام. هل تعانين من توبيخ الضمير أو من احباط ما؟

فاعترضت قائلة:

- اني بخير ولا اشكو من شيء.

استوت في جلستها بحدة، ونظرت اليه عبر اضواء بعثتها ألسنة اللهب.

- ليتك وافقت على النوم في الفراش (تابع بعذوبة) حيث كنا

سنستمتع بنوم هادىء ودفء عظيم.

- ان تفكيرك محصور دوماً باتجاه واحد (أجابته بنبرة لاذعة).

- أجل عندما اكون بالقرب منك فقط (أضاف بصراحة مطلقة) وكونك شقراء يزيد من توهج دمائي أكثر مما تفعله أية امرأة برازيلية.

- أخبريني الآن من الكاذب بيننا؟

- اني أخبرك الحقيقة. لقد اعجبت منذ زمن طويل بلونك الأبيض، وشعرك الأشقر، وعينيك الكبيرتين، وامضيت زمناً طويلاً احدّق بك، متمنياً لو كنت أكبر قليلاً واجرأ مما كنت عليه. هذا ما دفعني الى الابتعاد عنك.

فهمست تدافع عن نفسها:

- لا أصدقك. لقد أثارت كاتريونا اهتمامك فاصطحبتها الى لندن وخذلتني (امتزج صوتها لا ارادياً بمسحة الألم) ولكنك استطعت ان تنسى هذا الجانب من حياتك.

- لقد شرحت لك ما حدث مع كاتريونا. لم تثر انتباهي يوماً.

- لكنك اقنعتها بذلك.

- ومتى كان ذلك؟

- ألم تصطحبها في سهرات متأخرة؟

- لا لم أفعل.

- أجل لقد شاهدتك بأم عيني. رأيتك وأنت تقودها الى منزل الضيافة والساعة تشير الى الواحدة بعد منتصف الليل.

- شاهدتني مرة، فظننت أني اصطحبها كلّما أتت متأخرة. هلاّ سألتها أين تقضي سهراتها، ومع من؟

- أجل كانت تخبر والدتي أنها تخرج معك.

- يا لها من كاذبة حقيرة (انفجر غاضباً. ثم اردف بصوت ساخر) لن تصدقيني، لأنك صدقتها هي فقط. لقد اوصلتها تلك الليلة حيث اجتمعت بها مصادفة وقد كانت عائدة مشياً على الاقدام من أوبان بعد ان انهت سهرة رقص مع أصدقائها. اذ كنت قد أوصلت

تشارلي الى قاربه حيث سيقوم برحلة سياحية.

التزم الصمت فقد توقع ان تقول ألين شيئاً. لكنها صمتت والاضطراب يقهرها.

- وما زلتِ تعتقدين انني خذلتك من اجلها. كنت شهماً ومقدراً مسؤولية اعمالي في ذاك الوقت. ما رأيك لو أني تركتك حاملاً، ومضيت لشأني؟ (ومرة اخرى نظر اليها متوقعاً ان تجيبه، لكنها التزمت الصمت ثانية) كنت واثقاً انني سأذهب الى البرازيل دون عودة. لم يكن وضعي يسمح لي بمشاركة احد حياتي (سمعت ألين تهدج انفاسه في الظلام) حاولي ان تفهميني بحق السماء يا ألي. ولعل ايذاء مشاعرك آنذاك، خير من تحطيم حياتك الى الأبد.

- ولماذا لم تشرح لي ذلك قبل سفرك الى البرازيل؟ همهمت ولم يخفف حديثه من اضطرابها.

- لن يجدي ذلك نفعاً، فلم تكن معرفتي بك وثيقة، ولم يربطني بك عندئذ اي رابط. كنت مجرد فتاة صادفتها في العطلة، فلماذا اشرح لك ظروفي؟

- ألم تخش ان اكرهك لما فعلته؟

- كنت فتاة يافعة تستطيعين تجاوز تلك المرحلة. الم تعترفي الآن بأنك نضجت وخطبت لجورج.

- كفاك هزءاً بجورج (قذفته بالوسادة فأمسك بها ووضعها خلف رأسه).

- اشكرك (قال ببرود) كنت بحاجة لها.

نظرت ألين الى اللهب المتراقص، وما زالت أفكارها مضطربه.

ترى هل نسجت كاتريونا هذه القصة من خيالها خلال خمس سنوات؟ ولماذا تغار منها ألين؟ ولماذا تكره دومينيك الذي لم يخذلها بسبب شقيقتها؟ ولماذا تكن له هذا الحقد؟ امسكت رأسها براحتيها. وأخذت تفكر من ستصدق منهما. أتصدق دومينيك ام كاتريونا؟ ليتها لم تأت الى اردغور ثانية. ليتها لم تجتمع بدومينيك.

- كم أتمنى لو أني لم آت الى هنا (قالت بأنين) وكم اتمنى لو لم التق بك ثانية.

فعلق بهدوء:

- ولماذا عدت الى اردغور؟ هناك أماكن اجمل لقضاء الاجازة.

- أردنا ان نستمتع بالهدوء ونتكلم على انفراد بعيدين عن العائلة والعمل.

- قلتِ اردنا.

- نعم أنا وجورج.

- لماذا لم يزر القلعة معك؟

- لأنني سافرت بمفردي، وسيلحق بي، اعتقد انه وصل الآن.

- والآن يتساءل اين ذهبت عزيزته ألين؟ (وضحك فجأة) اعتقد انكِ على أحرّ من الجمر الآن. هل أخبرتِ أحداً بقدومك الى القلعة؟

- أجل. لقد وعدت السيدة ميتلاند بالعودة قبل ان يغمر المد الطريق.

فأجابها ضاحكاً:

- ولكنك التقيت بتنين القلعة الذي احتجزك حتى فات الوقت، فاضطررت لقضاء الليل معه (ثم ضحك ثانية وكأنه معجب بهذا اللقب) ومتى تتوقعين قدوم الملاك جورج لانقاذك؟

- الملاك جورج!

- إنّ اسم خطيبك مناسب جداً لهذه الظروف. فقد انقذ الملاك جورج فتاته من مخالب التنين.

نهض ليغذي النار، فنظرت اليه وبدأ شك جديد يزحف في داخلها.

- لكنك لم تحتجزني عمداً؟

- بالتأكيد. وبما أن ضيوف القلعة وزوارها قلة، كدت أنفجر ضجراً، اذ لم أر أحداً منذ زمن بعيد حتى ظهرت انت. لقد شربت

عدة زجاجات من الشراب، وبدأت أتكلم مع نفسي (توقف ثم تابع) أفضل أن أكون وحدي في غابة برازيلية بدلاً من البقاء هنا بمفردي. لهذا شغلتك بالحديث حتى تأكدت من ان الطريق غمرها المد. وما زلت ارغب ان تكوني معي بالرغم من وجود جورج.
فأجابته بضعف:
- انك تهدر وقتك هباء.
- لقد قلت هذا (أجابها مكشراً) ولكنني لا أوافقك عليه.
- سأعود الى الجزيرة حالما ينحسر المد، ولن يستطيع أحد ان يمنعني. آه يا دومينيك. لا بد أنك جننت ان اعتقدت أنك تستطيع الاحتفاظ بي قسراً عني.
- قسراً عنك ـ همهم بصوت يغلبه النعاس ـ يا إلهي أشعر بالتعب من الأنفلونزا.
- لكن يا دومينيك...
- دعينا ننام، سنتحدث في الصباح.
- لن أكون هنا صباحاً.
- انعمي بنوم هادىء، واستسلمي لأحلام سعيدة.
همس وهو يجذب حوله الغطاء الصوفي. حدقت ألين به وهي منزعجة من تجاهله، وصوت احتراق الحطب يهيمن على الغرفة من جديد، وصرير النوافذ يصم الآذان. أخذت تنظر الى ألسنة اللهب المتراقصة داخل الموقد مستغرقة في تفكيرها.
لن تبقى هنا معه، وسترحل الى أردغور لتحتمي بجورج. نظرت إليه علّه استيقظ مرة أخرى، لكنها تأكدت أنه ينعم بنوم هادىء.
وعادت تتساءل في الظلام لماذا يقيم هنا إذن؟ أقلقها احتساءه المزيد من الشراب. لا بد أنه أصيب بمرض شديد ترك آثاراً في وجهه. ربما التجأ الى هنا ليتفادى مأزقاً تعرض له في مكان ما. بدأ الكرى يداعب أجفانها. وهمست لنفسها: ترى لماذا يقلقني أمر دومينيك؟ انه لا يعني لي شيئاً الآن؟ علي ان أفكر بجورج

فلا شك انه قلق علي. ارتسمت على شفتيها ابتسامة هادئة وغمرها شعور جميل... اذ اقنعت ذاتها ان جورج سيأتي ولا بد لانقاذها.

٣ - لن أراك ثانية

استيقظت ألين والآلام تمزق عنقها وكتفها، على صوت المنبه الذي أنذرها ببدء الاستعداد لترك القلعة واجتياز الطريق. لكن الدفء الذي سيطر عليها، وهي تتمدد تحت الغطاء الصوفي، جعلها تفكر كيف ستبحث عن حذائها وسترتها وتهبط السلم المنحدر، وتسير فوق مياه المد المنحسر تتقاذفها الرياح، وما زالت خيوط الفجر تشق طريقها في صفحة الليل السوداء، فأغلقت عينيها متمنية أن يلتزم المنبه الصمت.

حقق المنبه أمنيتها، وخيّم الصمت ثانية على الغرفة، فلم تعد تسمع سوى صوت احتراق الحطب في الموقد فقد توقف صرير النوافذ وصفير الريح في المدخنة. نظرت الى الموقد فوجدت ألواحاً جديدة

من الحطب، يبدو أن دومينيك وضعها عند نهوضه، لكنه لم يوقظها، لا لن يفعل، لأنه يرغب الاحتفاظ بها في القلعة.

وما أن نظرت الى مقعده حتى هالها ما رأت. لقد اشرقت الغرفة بضياء الشمس البراقة، وخلا مقعد دومينيك حتى من الغطاء الصوفي، فسرت قشعريرة رعب في أوصالها، نظرت الى ساعتها، وفركت عينيها مندهشة اذ اشارت الساعة الى الثامنة والنصف صباحاً.

يا الهي! لقد ارتفع المد ثانية. ولكنها سمعت رنين المنبه منذ لحظات فقط! ترى ما الأمر؟

أبعدت الغطاء عن قدميها، واتجهت الى المنبه حيث جثم فوق رف الموقد فحملته بين راحتيها، وتفرست به عن كثب. اشار العقرب الى الساعة الثامنة والنصف. تلعثمت أنفاسها وهي تحرك العقرب بعصبية. اذن، لقد نفذ دومينيك خطته، وغيّر عقرب المنبه ليحجزها في القلعة. ارتدت سترتها وانتعلت حذاءها، وخرجت الى القاعة حيث تسللت من النوافذ اشعة الشمس الشاحبة، وانعكست على الدروع والتروس، وأظهرت الغبار الذي كسا المفروشات. مشت حول الدرع الذي تعثّر به دومينيك بالأمس، ثم اتجهت الى المطبخ فوجدته على حاله لكنه مضاء. اذ عاد تيار الكهرباء الرئيسي الى العمل.

احتلست النظر من نافذة المطبخ، فرأت مياه البحيرة هادئة منبسطة رقراقة ولشد ما أدهشها رؤية قارب الصيد يتمايل على صفحة الماء، فأدركت انه قارب انغوس ماكويري.

وبلمح البصر، هبطت السلم ترتدي سترتها، وتبحث في جيبها عن وشاحها لتلوح لأنغوس به. وما أن حاولت فتح الباب الرئيسي للقلعة حتى اصيبت بخيبة امل مريرة. اذ لم يفتح، فتأكدت ان دومينيك أوصده، وأخذ المفتاح معه. ركلت الباب بقدمها علّها تخفف من حدة غضبها، وهرعت عائدة الى نافذة المطبخ، لتجد القارب قد اختفى عن ناظريها، هرعت الى غرفة المكتب لعلها تراه،

فوقفت فوق احد الكراسي، وأخذ قلبها بالخفقان كلما أخذ القارب بالابتعاد، بعد أن حام حول البحيرة تاركاً حلقات مفرغة على صفحة الماء، بعد أن انهى انغوس جولته التفتيشية دون أن يعثر عليها، وها هو عائد ليخبر السيدة ميتلاند بذلك.

نزلت عن الكرسي، وأخذت تجول في القاعة والحيرة تنهشها. لقد أوصد دومينيك باب القبو وباب القلعة الرئيسي. إذن، لا مجال لها بمغادرة القلعة إلا باذنه. رفعت يدها لتدفع شعرها بعيداً عن وجهها، فاحست بجفافه وشعرت بحاجتها الى الاستحمام. لكن حمامَ القلعة في الطابق العلوي، فصعدت السلم الى الممر الخشبي المغطى الذي احيط بالقاعة العلوية، حيث أدت أبوابه الى غرف الطابق العلوي.

نظرت بدهشة الى غرفة نوم خصصت للزوار تعلوها الغبار، فسمعت صوت ماء يأتي من الطرف المقابل للغرفة. تبعت مسار الصوت فوجدت باب الغرفة مفتوحاً قليلاً. كانت الغرفة وثيرة مفروشة بالسجاد الأخضر الفاتح، وبأثاث من خشب الصنوبر اللامع، ذات سرير عريض مزدان بنحاس أصفر، وقد ألقيت فوق الغطاء المخملي الأخضر ملابس دومينيك.

كان الباب المقابل للسرير المؤدي الى حمام الغرفة الخاص مفتوحاً قليلاً. أخذت الأبخرة المتبعثرة تنطلق منه، كما انطلقت أصوات المياه وهي تسيل تدريجياً الى المصرف. مشت ألين نحو الباب وقرعته بلطف وقالت:

- هل انت هنا يا دومينيك؟

اجابها ساخراً:

- ومن في القلعة سواي!

ثم فتح الباب وخرج فجأة وقطرات الماء تبلل شعره، نظر اليها بعينين زرقاوين ساحرتين ذات أهداب كثيفة، امسك بها بيده، وقبل أن تتحرك من مكانها، جذبها اليه بيده الأخرى، وداعب خصلة من

شعرها الأشقر ترنحت فوق جبينها. وقال:

- صباح الخير يا ألي... وعانقها بخفة ورقة.

مزق شعور العاطفة أعماقها، اذ لم تكن مستعدة لعناقه، لكنها استجابت له، واستنشقت رائحة الصابون الذي استعمله. ثم ضمها اليه وقربها منه وهو يحيطها بذراعيه. ثم همس:

- اتدركين ما انت فاعلة بي؟

- اوه (دفعته وتحررت من قبضته) انت الذي تستغلني فقد غالطت في ربط المنبه، كي تحتجزني هنا، وأغلقت الباب فلم استطع اللحاق بانغوس الذي أتى ليصطحبني بناء على طلب السيدة ميتلاند.

ثم اخذت تتراجع الى الوراء ببطء، حتى التصقت بخزانة الملابس، بينما اقترب منها، وعيناه تشعان سحراً عهدته من قبل وأردف:

- الأمر بسيط، سأعانقك ثانية، فالسرور يغمرني وأنا بالقرب منك.

نظر اليها برقة، وفتنتها نظراته عندما انحنى عليها:

- رجاء لا تفعل. (همست بيأس وهي تخشى أن تستسلم لحواسها أيضاً وأشاحت بوجهها يمنة ويسرة لتتفادى نظراته، وهي تقول معترضة) لا، إن هذا خطأ.

- وما الخطأ فيه؟ تعالي تعالي... لقد اصبحت امرأة ناضجة... وقد سررت بما حدث للتو.

تحسس ذقنها، ثم داعبت انامله وجنتيها وهي تكاد تلتصق بالخزانة. وعلى الرغم من نعومة أنامله التي تفوق الوصف، فقد شعرت بصلابة لمساته، مؤكدة عزمه على نيل ما يريد. اذن لن تستطيع أن تمنعه، فأشاحت بوجهها الى الطرف الآخر وهي تردد:

- لا هذا خطأ... لا...

التصق بها حتى انها لم تعد ترى جانب فكه وشفته العليا المغرية

فأردفت:

- انني خطوبة لجورج - وكأنها تطلق بذلك آخر سهام الدفاع عن النفس.

- لتنس جورج يا ألين. (وتحسس وجنتها بأنامله مدغدغاً) لو كان جورج مهتماً بأمرك، لتبعك في الحال برفقة أنغوس ماكويري باحثاً عنك. (ضحك فصافح نَفَسُه أذنها). وأنا واثق من أن قصة خطوبتك هي من انتاج خيالك الخصب لتبعديني عنك.

- لا... لا... انه الآن في منزل اردغور. رجاء لا يا دومينيك، دعني وشأني لا تجبرني على ارتكاب خطأ يجعلني اخجل من ذاتي وأكره نفسي فيما بعد.

- تخجلين! (سأل مستفسراً وهو يتراجع محققاً املها) ولماذا؟

- اذ اني بذلك اخون جورج (استغلت ابتعاده وقفزت الى مكان فسيح). لقد أتيت الى هنا كي استحم، فهل استطيع استعمال حمامك؟

- تفضلي... (قال بصوت ممزوج بكرم الضيافة) استعملي كل ما تحتاجين اليه، كما تجدين هناك مناشف نظيفة. هل ترغبين في مساعدتي؟

- لا (وصفعت الباب وأدارت المفتاح في القفل خشية من أن يتبعها).

كان الحمام أنيقاً كغرفة النوم فقد فرش بسجاد أخضر، واحتوى على حوض استحمام بيضوي ذي لون أخضر، وأحيط بمرايا من جوانبه الثلاثة. غسلت ألين نفسها بالصابون بتكاسل، تنعم بالماء الدافىء. وما أن استرخت اعصابها، حتى عادت ذكريات عناقه تملأ حواسها من جديد. ولتبعد عنها أفكارها غسلت نفسها بالماء فبللت أرض الحمام كلها. أدركت ان عاطفتها لدومينيك لم تتبدل خلال الخمس سنوات الماضية، على الرغم من انها غدت امرأة ناضجة،

وتخطت تلك المرحلة من سني المراهقة حيث تفتش الفتاة بسرعة بمن حولها.

لن تستطيع الصمود أمام جاذبيته اكثر من ذلك، فقد تخونها اعصابها وترمي نفسها بين ذراعيه. ارتدت ملابسها بسرعة، ونظرت الى شعرها الأشقر الأشعث وخرجت من الحمام. كان دومينيك مرتدياً بنطاله المخملي مع قميص، وسترة تحاكي لون عينيه. اخذت ألين تتساءل في اعماقها وهي تشعر أن هذا الخاطر لا علاقة له بما يؤرقها. ترى من ينظف ملابسه؟ فقطع سؤاله أفكارها:

- هل تشعرين بتحسن الآن؟

- نعم! اشكرك.

- ستنعمين بالراحة التامة لو انك توافقين على العيش معي، فلديك كل التجهيزات المريحة هنا في حال وجود الكهرباء. (وأشار الى جهاز التلفاز وآلة التسجيل والمذياع. ثم اقترب منها ووضع يده على خصرها ليجذبها اليه متنهداً) تعالي نعش هنا معاً، وستنالين كل ما تطلبين.

- لا... لا استطيع (اجابته مبتعدة عنه) فالترتيبات هذه لا تلائمني.

- ولكنك اردت ذلك في يوم من الأيام.

- الا تكف عن سرد ما حدث تلك الأمسية، فأنا اشعر بالخجل من نفسي لما قلته أو فعلته.

- أهذا خجل أم احباط لأنك لم تحققي ما أردت؟

قال ذلك بقذارة فأصابها في صميمها. لكنه لاحظ ذلك فرقت تعابيره واقترب منها قائلاً:

- لا تضيعي الفرصة، فهي تمنح للانسان مرة في العمر. ابقي هنا ودعينا نعش معاً. وأعدك اني سأعوض ما فاتك آنذاك.

- يا لك من مغرور. وكيف تظن اني ارغب في البقاء معك؟ لن

ابقى، ولن ابدل رأيي، وسأتزوج جورج.

نظر دومينيك اليها بعينين ملؤهما الشك، وقلص جانب فكه وقال بسخرية:

ـ انك تكررين تلك الجملة كي تمنعي اقتراب التنين منك. كفاك اعتراضاً وستندمين يوماً ـ تنهد ليقول: هل تشعرين بالجوع؟ انني جائع (مشى الى الباب وهو يقول: سأعد طعام الافطار لنأكل معاً انني اطبخ بيضاً مقلياً لذيذاً، كما انني احضر قهوة شهية. ثم مضى في طريقه وهو يرمقها بنظرة خبيثة.

وما ان اغلق الباب حتى مضت الين الى المرآة. فرأت ملامحها تتأجج غضباً، وعينيها متضرجتين، ونظراتها مشعة، وشعرها مشعثاً فرتبته بفرشاة دومينيك فعاد ناعماً، ثم جعلت أطرافه على شكل زغب، وتركت بعضاً من خصله تتطاير فوق جبهتها. وسرعان ما شدها ذاك التساؤل لترى لمَ لا تحتفظ بهدوئها كلما التقت بدومينيك؟ لماذا تتأثر بسرعة بأقواله وأفعاله؟ أذهلتها تلك الحقيقة، وزادت من غيظها.

راقها منظرها اللائق كسكرتيرة لجورج لوسن. ولم تبد كفتاة داعبها دومينيك لاينثني بين احضان الخلنج منذ خمس سنوات. انتعلت حذاءها، وملّست تنورتها، ورتبت كنزتها السميكة ثم ارتدت سترتها الجلدية، وتهيأت لتخرج والى الأبد من القلعة المغربية.

آه ليتها استطاعت أن تلوح لانغوس لتعود معه الى منزل اردغور، حيث تبقى هناك مع جورج، وتبتعد عن دومينيك. وقفت على أطراف اصابعها، وأطلت من النافذة، فرأت مياه البحيرة هادئة وممتدة حتى الشاطىء الآخر، واستطاعت أن ترى الجزء الأعلى المثلث الزوايا من منزل اردغور اللامع، متضارباً مع لون الهضاب البنية الداكنة التي ظهرت خلفه. بدت المسافة قريبة فظنت انها تستطيع أن تجدف القارب بسهولة في هذا الجو الهادىء. راقت لها هذه الفكرة،

فهبطت مسرعة الى الطابق الأول، ووقفت في القاعة تلتقط أنفاسها لتبدو هادئة رابطة الجأش، وهي تخبر دومينيك، عن عزمها لمغادرة القلعة. دخلت المطبخ الذي امتلأ برائحة القهوة اللذيذة، فنظر دومينيك اليها عبر المائدة بنظرات جعلت الدماء تغلي في عروقها وقال متشدقاً:

ـ هل ستذهبين الى مكان ما؟

ـ اجل (حاولت ان تحتفظ بهدوئها) اذا سمحت لي ان افتح الباب الرئيسي.

ـ وهل ستقومين بجولة حول القلعة؟ اشربي القهوة اولاً، وسأعد لك طبقاً من البيض المقلي.

ـ اذا كنت لطيفاً ومهذباً، فأنزل القارب الى الماء، وقم بشق عبابه حتى نصل الى الجزيرة.

ـ ولكنك تنعتينني دوماً بقلة اللطف والتهذيب (اعتدل في جلسته ووضع يديه في جيوبه، ونظر اليها مبتسماً وقال) انا لا اقوم بأي عمل لا فائدة مرجوة منه. فالقارب يسرب الماء، وسنغرق في البحيرة.

ـ لكن القارب يبدو بحالة جيدة فلقد شاهدته بالأمس.

اجابها ببرود:

ـ لم تنظري اليه عن كثب. لقد انتزع لوحان من ألواحه من مكانها على الاطار، فأخذ الماء يدخل فيه. لقد أنزلته عند وصولي ولشد ما ازعجني اعادته للشاطىء اذ امتلأ نصفه بالماء.

انخفض كتفاها اذعاناً للهزيمة، وجلست الى المائدة. كان عليها أن تفكر انه قد جرب القارب من قبل. قدم لها القهوة قائلاً:

ـ هاك بعض القهوة، وستشعرين بالنشاط بعد تناول القليل من الطعام. حاولي أن ترضخي لمشيئة الأقدار، وتقبلي هذا الواقع.

ـ لكنك سببت لي حرجاً (انفجرت غاضبة) لو استطعت أن اخرج صباحاً عندما اتى انغوس بقاربه، لتمكنت من العودة معه. لقد كان

يبحث عني.

فأجاب بجفاء وقد اتجه الى المقلاة ليرى ما حل بالبيض:

- نعم لقد أتى الى هنا، فأيقظني حين قرع الباب بشدة، وأخبرني أن السيدة ميتلاند أرسلته لتطمئن عن وجودك وسلامتك. أخبرته انك هنا منذ الأمس وستمكثين مدة أطول.

- ولماذا لم تخبرني لأذهب معه؟ لماذا؟-دوى صوتها كالعاصفة. لماذا؟

فأجابها برقة ونعومة:

- انك تعرفين الجواب (نقل البيض من المقلاة الى الطبق وقدمه لها وهو يقول) تناولي ما يحلو لك من الخبز والزبدة.

لم تقاوم رائحة البيض الشهية، وبعد تناول قسم منه، عادت تهاجم دومينيك وهي تحدق به عبر المائدة مدمدمة:

- ماذا سيظن جورج والسيدة ميتلاند بي؟

- انهما على يقين انك تشعرين بالأمان والاطمئنان هنا - ثم احتسى ما بقي من قهوته.

- ولكنني لا اشعر بالأمان هنا (خشيت ان تقول معك حيث التقت نظراته الساخرة بعينيها وهو يضع القدح فتنفست بعمق وأكملت بحزم) سأغادر هذا المكان بعد ظهر اليوم عندما ينحسر المد ثانية.

صبّ لنفسه قدحاً آخر من القهوة، فظنت انه لم يسمع حديثها، اذ بدا مسروراً بما سببه لها من ازعاج فصرخت:

- دومينيك هل سمعت ما قلت لك؟

- اجل . . . لقد كان صوتك واضحاً ومرتفعاً. وكيف ستخرجين من هنا؟ آمل ألاّ تتصرفي كأبطال القصص، فتصنعي من اغطية السرير حبلاً طويلاً تربطينه الى النافذة لتهبطي عليه، كما ان هذه الطريقة خطرة للغاية، اذ ان نوافذ القلعة على ارتفاع شاهق،

وأخشى أن تنحل بعض العقد، فتسقطي على الأرض وتنكسر ساقك أو يلتوي قدمك. فأنا لا احب أن تصابي بمكروه.

ابتسم معبراً عن سروره وسخريته، وهو يتخيل ألين تعاني كثيراً كي تخرج من القلعة، لكنها فقدت السيطرة على اعصابها فقالت وهي تفكر بالمكان الذي اودع دومينيك فيه المفاتيح في هذه القلعة القديمة الطراز وقالت:

- معنى ذلك انك مصر على اغلاق الباب.

- هذا صحيح. اذ اني اشعر بالكسل اليوم، ولا ارغب بالخروج كما انني لا اتوقع قدوم أي زائر آخر الا جورج - ونظر اليها متحديا عبر المائدة-وهل تظنين انه سيلحق بك؟

لم تشأ الين ان تشعر دومينيك باقتناعها بأن جورج لن يأتي اليها، بل سينتظرها في منزل اردغور محاطاً بعناية وكرم السيدة ميتلاند. ومما يؤسف له ان جورج لا يتمتع بتلك الشهامة أو الرومانسية التي تمتع بها الملاك الاسطوري الذي انقذ حبيبته من التنين. كما ان جورج صديقها لا يعلم انها بين براثن تنين آخر.

تنهدت كاذبة:

- اجل سيأتي. لكن السيدة ميتلاند ستقنعه بعودتي حين ينحسر المد. وسألقاه بانتظاري على الطرف المقابل للطريق.

- وعندما لا تصلين، سيتبعك الى هنا؟ آمل أن يأتي فأنا بشوق لرؤيته.

- ليتني اعلم ما هدفك ولماذا تحتجزني هنا؟ ان هذا غير قانوني، ومعناه أنك اختطفتني، واحتفظت بي كرهينة.

- امل ان اقضي بصحبتك ساعات اخرى بل اياماً اخرى. وإن لم يتحقق لي ذلك طوعاً، فاعتبري نفسك رهينة الى ان تنفذي رغبتي.

وهل يعني كلامك انك ترغب في وجودي هنا مع اننا اشهرنا

العداء بيننا طوال الوقت (اعترضت بضعف اذ شعرت بأن صوته يحثها على البقاء وأن نظراته تهدد بتلاشي معارضتها).

- لا لم نشهر العداء طوال الوقت كما تقولين، ولن نفعل، والوقت كفيل أن يكشف القناع عنا ليفهم أحدنا الآخر بوضوح.

- اكتشفتك منذ خمس سنوات مضت. ولن تتغيرّ نظرتي اليك فأنت انسان قاس مغرور وأناني.

- لا يعرف أحدنا الآخر بعد. تدّعين معرفتي لأنني عانقتك وانسحبت (استند الى كرسيه وتفرس بها) كنت منذ خمس سنوات فتاة بدينة ذات أنف موشى بالنمش، مراهقة بريئة تركت المدرسة لتوها. لكنك الآن أصبحت امرأة انيقة، ذات خبرة أتت الى اردغور مع رئيسها لقضاء اجازة مشكوك بأمرها.

- لا شيء يكمن في علاقتي مع جورج (عادت ملامحه لتمتزج بالشك فانفجرت متابعة حديثها) كيف تتجرأ على الشك بوجود علاقة محرمة بيننا!

ومرة أخرى، اربكتها نظراته المباشرة اليها، فأشاحت بوجهها عنه. امسك بالابريق ثانية، وصب لنفسه قدحاً. اخذت تتفرس به ببطء من طرف عينها لكنها رأت اختلافاً في وجهه لم تنتبه اليه قبل الآن. لقد قست ملامحه واعترى وجهه قلق قاس وكأنه مر بأزمة لا تنسى. فسألته:

- لماذا ذهبت الى البرازيل؟

نظر اليها بدهشة، وأخذ يحرك السكر ببطء، حتى شعرت انه يتجاهل جوابها.

رشف قليلاً من القهوة، ووضع القدح ونظر اليها مجيباً:

- اما تعلمين انني ولدت في البرازيل، وترعرعت حتى اصبح لي من العمر اربعة عشر عاماً؟ وعلى الرغم من انني عدت الى اسكوتلندة، واتممت دراستي الجامعية هنا، الا أنني اشعر بالانتماء الى

الشعب البرازيلي. كما ان ملامحي تميل اليهم اكثر من الانكليز. وبصراحة عدت الى البرازيل لأمتحن شعوري تجاه كل من البلدين خوفاً من خداع ذاتي. كما ان عمي هيو عهد اليّ بمهمة هناك.

رشف القليل من القهوة، فشعرت ألين انه لن يتابع الحديث فسألته:

- وهل شعرت بالانتماء اليهم؟

- اعتقدت هذا لمدة قصيرة. اذ كنت محاضراً في الجامعة في قسم العلوم الانسانية... حيث عملت والدي سابقاً. وكسبت كثيراً من الأصدقاء (توقف وابتسم ابتسامة حقيقية) لن يجد الانسان المتعة الحقيقية في مكان ما على الأرض كما يجدها في ريو.

- اذن ولماذا عدت الى اسكوتلندة؟

نظر اليها ثانية محاولاً الاّ يخوض في تفاصيل حياته. لكنه أردف:

- لقد أغراني العم هيو اذ ترك لي مرتباً سنوياً سخياً مرتبطاً بتواجدي هنا مدة ستة اشهر من كل عام، محاولاً أن يعيدني بذلك الى نسبي الاسكوتلندي كما اعتقد. وربما انني كنت ابحث عن مكان اختفي فيه، فقد اتيت الى هنا وقبلت شروطه. كما ان وجودك يزيد من رغبتي في البقاء هنا (قال برقة جعلت الين تعبث بالشوكة والسكين فوق طبقها. ونظرت اليه كي تتفادى نظراته).

- ولماذا تختفي؟

- لست مضطراً للاختفاء. لكنني أريد أن انجز عملاً بسرعة، وهذا يتم اذا انقطعت عن العالم الخارجي.

- وما نوع العمل؟

- اريد كتابة قصة تتعلق بعمل والديّ بين القبائل الأصلية لأمريكا الجنوبية، فلقد طلب عمي هيو أن اتحرى ذلك عندما ذهبت الى البرازيل، فذهبت الى الأدغال متعقباً آثارهما.

- ومن أين انـطلقت، وقـد مضى زمن طـويـل عـلى اختفائهما؟

- لقد مضى عشرون عاماً. اخبرني زملاء والدتي في الجامعة أن والديّ انطلقا وحدهما مشياً على الأقدام لمقابلة قبيلة لم يرها أحد من العرق الأبيض. ذهبت الى المركز الطبي، الذي يستعمل كقاعدة لهم، ومنه انطلقت في رحلات استكشافية مختلفة حتى عثرت على القبيلة ثم تعرفت الى احدى قراها.

- وهل ذهبت بمفردك؟

- نعم في اغلب الأحيـان. انـه هـدف شخصي كـما تعلمين.

- وهل استغرق ذلك وقتاً طويلاً؟

- اكثر من ثلاث سنوات.

- وماذا فعلت بعملك كمحاضر؟

- لقد استقلت منه قبل أن اذهب.

نظر اليها بعينيه الزرقاوين فشعرت ان عليها الأ تسأله عن اموره الخاصة.

لكنها تجاهلت ذلك وتابعت:

- وهل تتبعت أثرهما، واكتشفت ما حدث لهما؟

- آسف لم اسمع سؤالك.

- هل عثرت عليهما؟

- لقد رأيت قبرهما في مقبرة القبيلة.

- وكيف حدثت الوفاة، ترى هل قتل الهنود والديك؟

- لا. لقد كانت القبيلة تجنح للسلم، ولم تعترض على وجودهما، ولكنهما اصيبا بأحد الأمراض الشائعة في الأدغال، ولم يحصلا على الدواء. كما لم يستطيعا السفر الى المركز الطبي. وبما ان عادات القبيلة لا تسمح لأحد بالاتصال مع العالم الخارجي، فلم يسمع احد باصابتهما.

- لا بد انك شعرت بالزهو لانجازك الرائع هذا.

تبدلت نظرتها اليه بعدما شرح كيف حقق مراده، وتلاشت صورة دومينيك الشاب اللعوب من خيالها، لتحل مكانها صورة رجل بكل ما في الكلمة من معنى، لا يثنيه شيء عن تحقيق اهدافه. ولو كلفه ذلك تحمل المشقات وخوض الصعاب. كما حقق امل عمه هيو بذلك.

- اعتقد ذلك (هز كتفيه) ولكنني لم استطع اخبار عمي بنجاحي اذ انتقل الى رحمة الله قبل عودتي (نظر اليها بارتباك) وهل تعلمين انني لم اخبر احداً سواك بهذا؟

- الم تخبر تشارلي وهيلين وابنة عمك السيدة كارستيرز عندما حضرت حفل الزفاف؟

- لا. لقد شغلوا بأمورهم الخاصة (قلص فمه ساخراً) كانوا يعتقدون ان ابي مجنون لأنه فضل التجوال بين القبائل بدلاً من الاهتمام بالبناء، وجمع ثروة طائلة، كما انهم لم يقروا زواج ابي من امي لأنها برازيلية. ويكرهونني لأن عمي أوصى لي بهذه القلعة. فلماذا اخبرهم عما فعلت وعما انوي فعله؟ رمقها بنظرة ثابتة، وافتر ثغره عن ابتسامة. حدثيني الآن عن امورك، ماذا فعلت خلال الخمس سنوات الماضية. لقد اخبرتني عن عزمك للدراسة السكرتارية.

- نعم.

- حسناً، (استند الى الكرسي وتحداها بنظراته وقال) انني بحاجة الى سكرتيرة.

- ولماذا؟

- لتساعدني في طباعة الكتاب، ومن الأفضل ان تقيم سكرتيرتي في منزلي، ولعلك ملائمة لي.

- ولكنني مرتبطة بعملي. فأنا أعمل حالياً سكرتيرة لجورج لوسن.

- أانت الآن سكرتيرة؟ (تشدق وتابع) ان هذا ممتع للغاية. اخبريني من اقترح قضاء اجازتكما هنا معاً، أنت ام جورج؟

- لقد اخبرتك مسبقاً انه اقترح أن نأتي لمكان هادىء نتكلم ونتمشى...

فقاطعها متابعاً:

- ولتدعيم علاقة ما!

- لا... ـ صرخت غاضبة ـ لقد حجزنا غرفتين مستقلتين عند السيدة ميلاند، كما ان السيدة ميلاند تراقب تصرفات زوارها، وقد تطردنا لو تصرفنا بشكل أرعن.

- وكيف ستعلم بما يفعله زوارها بعد أن تنام؟ (سألها ساخراً) وهل تعتقدين ان رجلاً ارمل في متوسط العمر يقترح قضاء اجازة طويلة دون أن يراوده خاطر ما.

- لمَ تحاول تحطيم ثقتي بجورج؟ (اتهمته وهي تهب واقفة) كما انه ليس بأرمل، فقد طلقته زوجته، فطلب مني الزواج. ولكنني لست متأكدة...ـصمتت فجأة لأنها لا تريد البوح بمزيد من اخبارها.

- اذن لست مخطوبة له، (قال برقة وقد شعر بزلة لسانها) فنظرت اليه بتردد، وهو يرمقها بنظرات باردة، فأيقنت انها لن تستطيع الاستمرار في كذبها.

- لا لسنا مخطوبين. (اضافت وهي تحاول ان تتفادى نظراته المتفحصة) لقد نسجت تلك القصة.

ارتبكت وحاولت اخفاء وجهها، فقناعها الكاذب قد سقط. مشت بقلق الى النافذة حيث اخذت اشعة الشمس تلاعب صفحة البحيرة الزرقاء التي فصلت الجزيرة عن اراضي اسكوتلندة. وقد لاح الشاطىء الصخري الذي ارتفعت على ضفافه اشجار الصنوبر الباسقة الخضراء، وطوقت المرتفعات من خلفها هضبة غطتها

الثلوج، وكأنها تغري السماء الزرقاء الشاحبة.

نهض دومينيك فسمعت ألين صوت احتكاك كرسيه بالأرض. فاهتزت اعصابها اذ شعرت انه يقترب منها وبسخرية مريرة قال:

- لا تختلفين عن كاتريونا. ها انت نسجت قصة من خيالك كما اعتادت هي ان تفعل. لقد اردت تغطية علاقاتك الغرامية مع رئيسك تحت ستار الخطوبة.

- لا لم افعل (اعترضت وهي تستدير لتقف امامه غاضبة).

- لا!ـ رفع حاجبيه بشك ـ اذن لمَ تحدثت عن اخلاصك له، وخشيتني مخافة خيانته. انك ستكرهين نفسك. لأنني احترمت افكارك تلك... فزجرت نفسي، لأعرف بعدئذ ان ما يربطك بجورج ولاء سكرتيرة لرئيسها. فلماذا امنع نفسي بعد الآن؟

ابتعدت ألين خطوة الى الوراء، فشعرت باطار النافذة يلتصق بظهرها إذ اقترب دومينيك منها اكثر فأكثر. ليس في وسعها أن تبتعد عنه بعد الآن، فقد امسك باصبعيه خصلة من شعرها الأشقر... فاتسعت عيناها، وجفت حنجرتها، وزاد خفقان قلبها، فدفعت رأسها الى الخلف، وصدرت عنها صرخة ألم اذ سحبها من شعرها.

- دعني أذهب. انك تؤلمني.

- لا اني لا اؤلمك (التصق بها) لقد تحركت فسببت ألماً لنفسك.

انزلقت يده تحت شعرها، وأمسك عنقها بخشونة ليجبرها على الاقتراب من وجهه.

- ارجوك لا تفعل... دعني...

لكن تضرعها ضاع في زحام عناقه الحالم، واستجابت له قبل أن

تفكر بالمقاومة. اخذت انامله تداعبها، وهي تشعر بتدفق عاطفة خاصة في اعماقها، وهامت في خضم عواطفه. استرعى انتباهها طرقاً على الباب، ما لبث دومينيك ان سمعه ايضاً. فابعد وجهه وهو يشتم بلطف. شعرت بالامتعاض فأراحت رأسها على صدره تستمع الى نبضات قلبه المتسارعة.

- ترى من هو الطارق!

- انه جورج وقد صحبه انغوس الى هنا - اجابها بتهكم ثم طبع قبلة سريعة على شعرها، وأبعدها عنه.

وكأنها أدركت خطورة استمرار تدفق عاطفته فيما لو لم يطرق احد الباب، فشعرت بالاشمئزاز يزحف في اعماقها، وتنهدت وهي تخفي وجهها بين راحتيها.

- ماذا حدث (سألها برقة) وقد وضع يده على كتفيها.

- اشعر بكراهيتك - همست وقد ازاحت يديها عن وجهها.

- ولماذا؟

- لأنك اوشكت ان تتجاوز الحدود واستغليتني.

- تريدين القول انني قبلت ما قدم الي - قاطعها بسخرية ثم سمعت صوت خطواته وهو يبتعد ليفتح الباب.

ابتلعت الين لعابها بصعوبة، ورتبت كنزتها، ثم ارتدت سترتها وصففت شعرها بيدها. وعندما تأكدت من حسن هندامها وتلاشي خجلها، مضت الى القاعة.

كان دومينيك يدير مفتاحاً حديدياً كبيراً في القفل، فشعرت بتوتر عند رؤية الباب مفتوحاً على مصراعيه، وتنهدت الصعداء عندما رأت انغوس ماثلاً وحده امامها، بقامته البدينة القصيرة، مرتدياً معطفه الجلدي الأصفر، وحذاء مطاطياً عالي الساق. اطلت نظراته الباردة المتفحصة من تحت قبعة الصيد التي وضعها على رأسه وقال بلهجة خاصة:

- آسف لازعاجك ثانية يا سيد دومينيك. ان السيدة ميتلاند ارسلتني لأخبر الآنسة الين انها...

وما ان سمعت الين ذلك حتى وثبت امامه فسألها:

- هل انت الآنسة الين؟

- اجل.

- لم ارك منذ مدة طويلة كيف حالك؟

- حسناً. اشكرك (اجابته بأدب اذ شعرت ان لباقته الخاصة بأهل المرتفعات لا تسمح له بادلاء الرسالة دون التحية والاستفسار عن الصحة) وكيف حال السيدة ماكويري؟

- انها بخير. لكنها تعاني من آلام المفاصل. على كل حال اتيت لأنقل لك ان السيدة ميتلاند مسرورة لعدم تعرضك لأي سوء الليلة الماضية، ولأخبرك ان السيد جورج لم يصل بعد، وتتساءل عما حل به. كما تخبرك ان والدتك اتصلت هاتفياً هذا الصباح وأخبرتها عن حصول حادث ما.

- وما نوع الحادث؟ (سألته الين وموجة رعب تعترضها).

- لا اعلم. لكنها تقول عليك ان تخابري والدتك هاتفياً.

- لا استطيع، فالهاتف لا يعمل هنا، فهل لك ان تصطحبني الى اردغور؟

- عليّ ان اتفقد شباكي حالاً. (واخذ يحك رأسه).

- اعلم ان وقتك ثمين. ليس باليد حيلة، اذ عليّ الاتصال بأمي.

حملقت في وجهه، وقد اختلج السرور في أعماقها، ها هي قد وجدت طريقة للهرب من دومينيك ومن اغرائه.

- حسناً. سأقودك وسأعتبر هذا حالة طارئة. اسرعي (هبط السلم وقال مودعاً) طاب يومك يا دومينيك، سأراك فيما بعد، اذا قررت ان تبقى هنا.

- طاب يومك يا انغوس.

وعندما تسللت الين من جانبه، امسك ذراعها بشدة وقال:

- اخبريني بما جرى.
والتقت عيناهما ليقرأ ما يجول بخاطرها.
- لا. لن اخبرك. لقد منحت الفرصة لي ان اذهب بعيداً... لن اراك ثانية.
ترك يدها فهبطت مسرعة لتلحق بأنغوس وكأنها على جناح الريح.

٤- من أجل عينيك

جلست الين في مؤخرة قارب أنغوس، فوق صناديق الأسماك المحاطة بأكوام من شباك الصيد، وقد طغى صوت المحرك على صوت الطوافي وعلب الزيت القديمة. نظرت الى الخلف باتجاه القلعة التي بدت مشرقة بجدرانها الأجرية الرمادية، والثلوج تغطي قمم الجبال من خلفها، وكأنها قلعة من قلاع الروايات الخيالية، تتربع فوق جزيرتها الخضراء حيث يغدو الحلم حقيقة.

وبحدة أشاحت بنظرها عنها، وهي تشد قبضتها في جيبها، وتعض شفتها السفلى كي تكبت احساسا أخذ يتدفق في أعماقها. لن تنظر الى القلعة ثانية، لئلا تتلاطم أمواج الذكريات بينها وبين دومينيك، فتهيم على وجهها وهي تستسلم لاغرائه.

لن تجد الذكريات طريقاً الى قلبها، ولا بد من العودة الى أردغور، والتفكير في صديقها جورج وفي مستقبلها. أخذ منزل أردغور يقترب كلما شق القارب طريقه على صفحة الماء. ترى ماذا حلّ بجورج؟ ولما لم يصل بعد؟ وهل شمله الحادث؟ حاولت تذكر ملامحه، ولون عينيه او شعره... ولكن... هل يعقل أن تنسى ملامح رئيسها؟ أجل لقد تداعت صورته، لتحل مكانها صورة رجل آخر.

يا إلهي، ها هو التفكير بدومينيك يشق طريقه ثانية، لقد استطاع خلال أربع وعشرين ساعة اثارة ذكريات مختلفة جاهدت ان تتناساها طوال خمس سنوات. لقد غدا شعورها الآن مماثلاً لأحاسيسها بعد لقائهما في تلك الأمسية، عندما احتضنها بين نبات الخلنج. انها تحبه حباً سرمدياً، وترغب في البقاء معه والى جانبه، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه... وأخذت تتساءل من جديد لماذا رفضت البقاء معه ومساعدته في الكتاب؟ ولمَ اختلقت تلك الأحاديث الكاذبة متخذة من جورج درعاً يحميها؟ هل تخشى ان تقع ثانية في شراك حبه فيؤذي مشاعرها مرة أخرى؟

تباطأ محرك القارب عندما اقترب من الرصيف الذي يفصل الجزيرة عن الماء بالقرب من منزل الضيافة. وعندما استقر القارب عند الحائط الحجري، شكرت ألين انغوس، وصعدت السلم الحجري، وهي تسمع صوت القارب يتحرك من جديد فوق مياه البحيرة لينطلق الى البحر.

استرعى اهتمام ألين العصافير التي تزقزق فرحة أمام المنزل، كما لاحظت قرب الباب الأمامي تفتح نباتات الزعفران في ظل جذوع النباتات الوردية. وما ان وقفت على العتبة حتى فتحت السيدة ميتلاند الباب، وأطلت بوجهها الزهري، وعينيها الرماديتين العاصفتين ومضت توبخها:

- هل استمتعت بقضاء الليل في القلعة؟ ألم احذرك من المد؟ سحقني القلق عليك وعلى صديقك الذي لم يصل حتى الآن.

- انني آسفة (ودخلت الى القاعة حيث فاحت رائحة الخشب الملمع) لم استطع الاتصال بك، اذ ان الهاتف لا يعمل، ولا أعلم ما حل بجورج.

- اذن اتصلي بوالدتك (قالت وهي تفتح الباب المؤدي الى غرفة صغيرة استعملتها كغرفة مكتب وضعت فوقه الهاتف) عليك ان تدفعي تكاليف الاتصال. اتصلي بعاملة الهاتف اولاً.

جلست ألين على حافة المكتب، وأمسكت السماعة، وادارت القرص بينما وقفت السيدة ميتلاند أمامها واضعة يديها على خصرها، وامتزجت نظراتها بشك مريب، ثم قالت:

- لقد أخبرني انغوس انك قضيت الليل بصحبة السيد دومينيك، فهل هو ابن أخ السيد هيو رحمه الله؟ أهو الشاب نفسه الذي هربت كاتريونا معه منذ مدة؟

- أجل. لقد آلت إليه القلعة، وسيقيم فيها مدة من الزمن.

- وهل يقيم الآن بمفرده؟

- أجل... نظرت أمامها، وتمنت ان يجيب عامل مقسم الهاتف.

- إذن لن تسر والدتك عندما تعلم بذلك، خاصة انك تعلمين رأيها ورأي السيد مورتون به. انني حزينة اذ آلت القلعة الى شخص غريب عنا. انها عرين اسرة لايتش منذ مئات السنين. وعلى الرغم من ان تصرفات السيد هيو لم تكن على ما يرام، لكنه يعتبر فرداً من أفراد الجزيرة، عمل ما في وسعه من اجل هذا المكان والقرية أيضاً.

- لكن دومينيك من العائلة نفسها. لأن اباه كما تعلمين من أسرة لايتش حتى ولو كانت أمه برازيلية (دافعت ألين عنه).

- لا ان دماءه مزيج غريب، كما أن تصرفاته غريبة. ألا تذكرين ما فعل عندما هرب بكاتريونا؟ وها هو قد عاد للاستقرار هنا دون ان يخبر أحداً بقدومه.

دمدمت السيدة ميتلاند وخرجت من الغرفة. أجابها المقسم أخيراً، وسمعت ألين صوت والدتها عن بعد توافق على دفع التكاليف فحيتها قائلة:

- أهلا يا أمي؟

فردّت الأم بقلق ممزوج بالفضول:

- أين كنت؟

- انها قصة طويلة سأخبرك بها لدى عودتي. انني بخير. أخبرتني السيدة ميتلاند انك تريدين ان أتصل بك ماذا حدث؟

- لقد وقع حادث يا ألين.

- ما هو؟ ومن أصيب خلاله؟

- جورج وكاتريونا.

- كاتريونا؟ وما علاقة كاتريونا بجورج؟

- لقد أتت مساء الخميس الى منزلنا لقضاء اجازة، ريثما تتبدل ساعات عملها من النهار الى الليل في المستشفى. وعندما علمت أنك موجودة في أردغور، اتصلت بجورج كي يصطحبها معه. وعند منتصف الطريق في ستيرلينغ انزلقت السيارة بسبب الصقيع، اذ كان اليوم عاصفاً ومثلجاً، فانقلبت السيارة رأساً على عقب. وهما الآن في المستشفى.

- وفي أي مكان؟

- في ادنبرة. سأذهب وزوجي لنراهما هذا المساء. ان اصابة جورج خطرة. أما كاتريونا فقد أصيبت بجراح طفيفة وتعاني من الصدمة... يجب ان تعودي في أسرع وقت ممكن. لاسيما أنك سكرتيرته.

- بالطبع. سأعود حالما أجد مكاناً لي في سيارة الأجرة الذاهبة الى فورت وليام. وهل تعلمين يا أمي لماذا أرادت كاتريونا القدوم الى

أردغور؟

- لا. راودها هذا الخاطر فجأة على ما أعتقد. لقد قابلت هيلين كارستيرز في غلاسكو منذ أسبوع، وتحدثنا عن الأوقات السعيدة التي تمتعنا بها في أردغور. ستخبرك بالتفاصيل عندما تراك. أخبرينا عن موعد وصولك كي ننتظرك في المحطة.

وضعت ألين السماعة ببطء، وتزاحمت التساؤلات في ذهنها وأهمها الحافز الذي دفع كاتريونا فجأة لزيارة شمال اسكوتلندة. ولماذا وافق جورج على اصطحابها؟ وقد خطط بنفسه برنامج الاجازة لقضائها مع ألين، وفي مكان بعيد عن العائلة والاصدقاء.

قطع صرير الباب أفكارها، فقد فتحته السيدة ميتلاند لتسألها:

- ماذا هناك؟ وما الذي حدث؟

- لقد جرح السيد جورج اذ انزلقت سيارته بسبب الصقيع. انه الآن في المستشفى. علي ان اعود فوراً لألحق به في المستشفى.

- سيحالفك الحظ اذا استطعت مغادرة أردغور قبل يوم الاثنين.

- الاثنين؟ لا عليّ الوصول قبل ذلك. فلا بد من الالتحاق بعملي الساعة التاسعة من صباح الاثنين. سأستقل سيارة الأجرة الى فورت وليام حيث سأركب القطار الى ادنبرة.

- لن تتمكني من ذلك. لأن السيارات الكبيرة لا تغادر اليوم اذ انها لا تستطيع العبور فوق جبال جلينكوري وما زال الثلج جاثماً.

- إذن سأذهب غداً الأحد.

- لا. أونسيت أن يوم الأحد يوم عطلة، ولا تتوفر المواصلات العامة.

- لا بد اذن من أن اعثر على سيارة خاصة تقودني الى فورت وليام ترى هل يقودني ابنك أليك سأدفع له مبلغاً اضافة الى نفقات الوقود.

- انه الآن في أولابول ولن يعود قبل مساء الأحد، فقد اصطحب زوجته وأولاده لزيارة جدتهم. اطلبي ذلك من ويلي فاريش صاحب محطة المحروقات، فقد يصل بك الى فورت ويليام ولكنك ستضطرين المبيت هناك لعدم توفر مواصلات عامة يوم العطلة.

- لا أستطيع أن أصدق أني أبعد عن ادنبرة مائتين وستين ميلاً فقط.

- لكنها أميال متعرجة، وطويلة عبر الأنفاق وفوق الهضاب كما تعلمين. وبما أنك لم تستخدمي المواصلات العامة قبل الآن، فلا تشعرين بذلك. ولو عدت مع صديقك هذه المرة، لما كان لديك فكرة عن مواعيد المواصلات العامة. أليس كذلك؟

- أجل (تنهدت ألين) سأذهب لأطلب من ويلي مساعدتي. فلربما يعلم بتحركات أهل القرية.

- لكن معظم أهل القرية يستعملون سيارة الأجرة، لأنهم لا يتحملون نفقات السيارات الخاصة. عليك بسؤال ويلي نفسه. وسيكون طعامك جاهزاً عند عودتك - خرجت ألين من المنزل باتجاه المحطة تسير في قرية أردغور المؤلفة من مزارع صغيرة، ومخزن عام، وساحة للقرية، ومحطة للوقود. لم تجد ألين أحداً في المحطة، فقرعت باب المنزل الخاص بصاحبها، ففتحت لها الباب امرأة تحمل طفلها على ذراعها.

سألتها ألين عن زوجها فردّت:

- لقد ذهب ويلي لمساعدة الآخرين في جرف الثلوج. عودي الساعة الخامسة مساء، وسيساعدك عند عودتك.

غمر الأسى ألين، ومشت الى المنزل مسافة ميلين، وجدران القلعة التي ومضت على صفحة البحيرة تتراقص أمام عينيها لتذكّرها بدومينيك الماهر الذي يعرف طريق فورت ويليام بشكل جيد. لا لن تطلب منه مساعدتها، بعد ان هاجته وبعدما حدث بينهما. لقد كان

سبب هذا المأزق اذ حجزها في القلعة، وانتظرت حتى سنحت لها الظروف بالخروج منها.

وما ان دخلت منزل الضيافة حتى وجدت طعامها جاهزاً كما وعدت السيدة ميتلاند.

قررت ألين بعد تناول طعامها ان تتمشى فوق قمة الصخرة الرابضة على جسر أردغور، كي تسهل عملية الهضم. مشت الى المنارة فوق طريق متآكل نبت عليه عشب أخضر، وتناهى الى مسامعها ثغاء نعجة. وقفت برهة تحت برج المنارة الأبيض الشامخ، المرتفع فوق خليط من صخور حادة خطرة، ترتطم بها مياه البحر الصاخبة الخضراء وهي تهدر هديراً رائعاً، وتنثر رذاذاً لطيفاً. كما أخذت تميز جزراً صغيرة تتلألأ تحت أشعة الشمس وتبدو كالحيتان المتكومة عند تلاقي البحيرة بالبحر. كما لاح لها طيف جبال سكاي الملتوية بلونها الأزرق الرمادي بتأثير أشعة الشمس.

غشت المناظر الجميلة عينيها، وتسلقت بصعوبة بعض صخور الشاطىء، وبدأت تشق طريقها الى بيت الضيافة، وقد أخذ المد يمتد شيئاً فشيئاً، والرمال تقسو تحت وطأة قدميها. استغرقت عودتها وقتاً أطول من مسارها فوق الصخرة. وما ان وصلت حاجز الميناء القديم، حتى غمر المد الطريق كلية.

صعدت السلم الحجري فوصلت الى منزل اردغور. نظرت بدهشة اذ لفت انتباهها سيارة من طراز جاكوار تقف عند الباب. كان دومينيك متكئاً على غطائها المعدني، وقد دفن يديه في جيوب سترته المصنوعة من جلد الماعز. وما ان شاهد ألين حتى اقترب منها وسألها:

- هل استمتعت بالنزهة؟
- وماذا تفعل هنا؟
- انتظرك. أود أن أعرف لماذا صرف جورج النظر عن الزواج بك؟

فأجابته بحزم:

- لا لم يفعل. لقد اخبرتك اني لا ارغب في رؤيتك ثانية.

فردّ باللهجة نفسها:

- أعلم أنك لا تعنين ذلك.

- بل أعني ما أقول (وخطت باتجاه ممشى الحديقة، وقبل أن تدفع الباب وقف أمامها) اذهب من هنا رجاء.

- لا سألحق بك أنّ حللت وأينما ذهبت.

استرعى انتباهها رجفة في نبرته، فنظرت إليه بسرعة، وهو يتأملها بعمق، فالتقطت نظراته اللامعة الملتهبة وقالت محاولة ان تمنعه من الدخول:

- يجب ألاّ تدخل. لن ترحب السيدة ميتلاند بك، لأنها لا ترغب بوجود الغرباء.

- لكنها لم تشعرني بذلك بل ساعدتني منذ خمس دقائق.

- ساعدتك! وهل شاهدتها؟

- اجل. لقد فتحت لي الباب واخبرتني أنك خرجت للنزهة، كما اخبرتني عن جورج، وأنك ستعودين الى ادنبرة، وتبحثين عمن يقودك الى فورت ويليام (توقف ثم أضاف ببطء) اذا كنت ترغبين بالعودة فعلاً هذه الليلة يا الي، فسأصطحبك الى ادنبرة حيث نصل اليها بعد منتصف الليل.

- لا. أشكرك. لا أريد مساعدتك عاجلاً أم آجلاً (اجابته وهي ترفع رأسها شامخة ببصرها). سيصطحبني ويلي بعد عودته خلال نصف ساعة. هل لك أن تخلي طريقي الآن؟ أريد دخول المنزل.

لكن دومينيك لم يتحرك، بل استند الى البوابة، وعقد يديه على صدره وقال بلطف:

- لقد أتيت كصديق لأصطحبك.

فقاطعته غاضبة:

- لسنا بأصدقاء يا دومينيك لايتش.

- أجل هذا صحيح. لم نكن أصدقاء يوماً (ثم تابع بغضب) إذن سأصطحبك بصفتي رفيقك تقريباً. أعني رفيق المستقبل الذي يرغب ان يقدم المساعدة لرفيقته، فهل يلائمك هذا الافصاح أكثر؟

- لا... اغرب عن وجهي، وكف عن إيذائي. نظر اليها ساخراً وقال:

- لقد غدوت امرأة ناضجة وفاتنة، ولكنك للأسف لا تقبلين الحقيقة بل تهربين منها إمّا بالكذب أو بالتجاهل. ترى هل تعلمين انه لولا قدوم أنغوس هذا الصباح لأصبحنا رفيقين.

فأجابته حانقة:

- لا... لا... أبداً.

أرادت ان تنكر الحقيقة وهي تهز رأسها يمنة ويسرة حتى تناثرت خصلات من شعرها المزغب وقالت:

- انني لا احبك، ولست معجبة بك.

- إنك تكذبين ثانية (هاجمها بقوله هذا وانحنى أمامها فنظرت الى نافذة منزل أردغور خشية من مراقبة السيدة ميتلاند) الا تعرفين الحكمة التي تقول ان تصرفات المرء هي التي تحكم أقواله، واستجابتك لي خير دليل على انسجامك معي ورغبتك بي. وهذا ما أشعر انا به تماماً.

- لقد حصل ذلك كله بسببك. انها غلطتك (اصرت لاهثة) لو لم تقترب مني لما فعلت ذلك. اغرب عن وجهي، اتركني بمفردي.

- لا استطيع (اجابها ببساطة) الا تفهمين يا الي ما أعنيه. أريد ان نبقى معاً شئت أم أبيت، ولهذا سأقودك الى ادنبرة (حدقت بدهشة في وجهه المرتبك ذي العينين المتلألئتين بوميض أزرق (تابع كلامه بجفاء) انني عنيد أيضاً ولن يغير من عزيمتي شيء. ان حقائبك في سيارتي فقد أحضرتها السيدة ميتلاند من غرفتك. كما اني دفعت أجرة غرفتك لأربعة أيام مقدماً، وهذا ما سرّ السيدة ميتلاند. اصعدي الآن الى السيارة.

- ليس لك الحق بذلك.

- ليس لي أي حق شرعي. لكنني أردت ان استغل الوقت وأوفر الجدال. اصعدي. دعينا ننطلق الآن.

- لن آتي معك، ولن تجبرني على ذلك (حدقت به متحدية) اخرج حقائبي وسأدفع لك ما دفعته للسيدة ميلاند، وحينئذ تستطيع مغادرة المكان.

- لا لن أفعل (ونظر كلاهما الى الآخر ثم افتر ثغر دومينيك عن ابتسامة وأردف) إنك تهدرين الوقت يا ألي. لن يستطيع أحد سواي ان يخرج حقائبك بما فيها حقيبة يدك من صندوق سيارتي. ولن يقودك الى ادنبرة سواي. وستبدين حمقاء أمام السيدة ميلاند اذا رفضت عرضي هذا.

جذبت حركة السيدة ميلاند من خلف النافذة انتباه ألين بينما دومينيك يحثها على الصعود بصوت لا يخلو من التهديد:

- اصعدي الآن والا استعرضت قوة عضلاتي أمام السيدة ميلاند. مشت الى سيارته وكأن قوة عنيفة تسحبها، واستسلمت الى أفكارها:

إنه على حق فمن الغباء أن أرفض عرضه هذا. ولو قدمه أحد غيره لشكرته على الفور. جلست في السيارة تنظر من النافذة الأمامية. وهي تخشى الانفراد به، فعاطفتها الجياشة لن ترحمها.

فتح دومينيك باب السيارة المقابل، ورمى سترته على المقعد الخلفي، ثم انزلق خلف المقود، وقال بلهجة آمرة وهو يربط حزام الأمان:

- اربطي حزامك، وستشعرين بالاطمئنان وأنا أقود السيارة فلربما أسرعت.

ربطت الحزام باستسلام، وشرع في القيادة على الفور. مشى ببطء فوق الممشى الضيق، ثم أدار السيارة، وانطلق بعد ان سمع

احتكاك الاطارات بالأرض، وأخذ يشق طريقه بين أحضان القرية الهادئة حيث غطت الثلوج القمم المحيطة بها، فبدت صفراء شاحبة، وأشعة الشمس تنسكب عليها من الغرب.

اتسع الطريق حتى جلينكوري لصف واحد من السيارات، على الرغم من ان مجلس القرية قد خطط لتوسيعه منذ زمن. لكن أهل القرية وزوارها اعتادوا القيادة بحذر فوق هذا الطريق، مستعدين للوقوف مباشرة عند قدوم سيارة من الطرف المقابل.

أما دومينيك فلم يتبع ذلك المنهج، مما اضطر ألين ان تغلق عينيها بشدة كلما انعطف عند مفترق الطريق، دون ان يخفف من سرعته، اذ كانت تخشى الاصطدام بإحدى السيارات عند اي منعطف. ولحسن حظهما لم يصادفا احداً في الطريق، ولم يؤنس وحشتهما الا صوت الريح ومنظر الثلوج تغطي الهضاب المتناثرة على جانبي الطريق الذي ما لبث ان انحدر بمحاذاة جدول سريع اختلطت مياهه بعض الصخور. كما تلألأت اغصان من اشجار الصفصاف التي تلطخت ببراعم زهرية متأهبة لتفتح ورودها المخملية.

وعند الأصيل وصلا الى النفق الضيق المرتفع الذي لم يشاهد أشعة الشمس مطلقاً حتى في أيام الصيف. أغلقت اكوام الثلج الطريق، لكن الجرافات أزاحتها. قاد دومينيك بهدوء مستعيناً بأنوار سيارته الأمامية والمصابيح التي أضاءت صخور الثلج. وعندما وصلا الى نهاية الممر الضيق، واتسع الطريق، وقفت الجرافات والعمال. وما لبث أحد المساهمين في تجريف الثلج أن اشار الى دومينيك ليقف ثم قال له:

- انتبه عند المنحدر الى قرية جلينكوري اذ ان البقع الجليدية مخيفة، وسيارتك هي أول واحدة تمر فوق الطريق هذا اليوم

تابع الطريق العريض التواءه بالقرب من شواطىء بحيرة كوري، التي تلألأت بأنوار فضية بين رحاب الغابات المظلمة ثم التوى الطريق ثانية عند قرية جلينكوري، وعاد للانبساط ليلتحق بهضبة

عريضة حيث وقفت النعاج تحدق بالسيارة بعيون تومض، وتطلق اصواتاً حزينة تهادت الى مسامعهما.

تبدل لون السماء من أخضر شاحب الى لون زهري، ولمعت النجوم فوق رؤوس الهضاب. وعندما اطمأن دومينيك لرؤية الطريق بوضوح، أطلق عنان السيارة التي أخذت تمزق صفحة الصمت بهديرها.

لم يتبادلا الكلام. اذ طغى الارتباك على ألين نتيجة تصرفاته، بل أخذت تحدّق في الظلام الذي بدأ يزحف بسرعة الى اليابسة، وتفكر بما سيقوله والداها عند مشاهدة دومينيك، فهما لا يثقان به لاعتقادهما انه قد أساء معاملة كاتريونا.

وبعد نصف ساعة وصلا الى مفترق طريق حيث التقى الطريق بسكة القطار المتجه الى فورت ويليام، فانعطفا غرباً.

وفجأة قطع حبل الصمت بينهما شعور دومينيك بالجوع فقال:

- لم أتناول طعام الغداء، فهل تعرفين مكاناً صالحاً لتناول الطعام؟ وأثناء ذلك أتمكن من رؤية الخريطة اذ اني لا أعرف طريق ادنبرة جيداً. فغالباً ما أذهب الى غلاسكو.

تناولا الطعام في فندق قديم في شارع رئيسي. جلسا في غرفة طعام خلت من النزلاء. ونظرا الى خريطة جلبها دومينيك من سيارته. فقالت ألين تشرح خطة السير:

- يجب ان نذهب الى كريانلاريش وبدلا من الذهاب باتجاه بحيرة لوموند تنعطف يساراً على طريق كيلين ثم يميناً الى كالاندر.

- وهل اتبع جورج هذا الطريق؟

- نعم. لقد أخبرتني والدتي ان سيارته انزلقت بهما بسبب الصقيع بين فالكريك وستيرلينغ.

- ومن كان يرافقه؟ ترى هل اصطحب معه احد المتطفلين على السيارات؟

انزعجت لزلة لسانها، فهزت رأسها وقالت بصوت خفيض:

- رافقته كاتريونا.

- كاتريونا: (أجاب بدهشة) أعلم بأن جورج قد رغب الانفراد بك.

- أخبرتني امي ان كاتريونا اتت الى المنزل يوم الخميس، وعندما علمت بذهابه الى أردغور طلبت منه ان يصطحبها.

- وهل أرادت متابعة ألاعيبها القديمة؟

- ماذا تقصد؟ وعن أية الاعيب تتكلم؟ (دافعت بولاء عن شقيقتها).

- هل تعرف جورج من قبل؟ ولماذا تطلب منه أن يصطحبها وهي تعلم انه معجب بك؟

- لقد قابلته مرتين كما أعتقد. كانت الثانية في حفل عشاء رأس السنة الجديدة الذي أقيم في منزلنا (قطبت جبينها اذ تذكرت ان جورج سأل كثيراً ومراراً عن كاتريونا بعد ذلك).

- الا تعتقدين انها أرادت ان تقنعه بتغيير وجهة سفره، وقضاء الاجازة معها في مكان ما. بدلاً من القدوم إليك في أردغور!

- لماذا تسخر منها ثانية؟ لن تفعل كاتريونا ذلك.

- يا إلهي! ما زلت ساذجة وتثقين بها (نفد صبره ورماها بنظرة حادة) وهل ستذوقين مرارة الألم اذا ثبت لك ما أقول؟

نظرت ألين الى غطاء المائدة المخطط الأبيض وشعرت بالحرج وأردفت:

- لا لن أثور لذلك (وأخذت تفكر بردود فعلها تجاه تصرفات كاتريونا بدلاً من ان تفكر بشعورها فيما لو تحول اهتمام جورج الى شقيقتها).

- هكذا اذن؟ ألم أخبرك أنك لا تحبين جورج؟

- وهل تظن أنك ماهر اذ اكتشفت تلك الحقيقة؟ (ارتبكت

ونظرت الى الاعلى. بدت نظراتها داكنة لامعة تحت ظلال أضواء المصباح الذي وضع على المائدة) وماذا تعرف عن الحب؟

أطبق أهدابه السوداء فجأة، وتقلص فمه، وتراقصت الدهشة حول ماقيه، فشعرت بسذاجة سؤالها، وحاولت ان تتخلص منه. لكنه نظر اليها ثانية بنظرات ناعمة وجادة. وقال:

- ان خبرتي في هذا الموضوع تفوق خبرتك يا آلي؟ وساخبرك التفاصيل عندما تتوثق معرفتي بك اكثر فاكثر.

شعرت وللمرة الاولى منذ ان عرفته انها لا تعلم الا القليل عن حياته الخاصة، وان فارق السن بينهما كبير، فهو يكبرها بعشر سنوات. وقد أكسبته اسفاره الكثيرة، ومخالطته للناس خبرة واسعة. وتذكرت ما أخبرتها هيلين من أنه اعتاد ان يستضيف في منزله صديقاته الفتيات. انها غبية اذ ظنت أنه لا يعرف معنى الحب، ولم يقع في غرام احداهن حتى الآن. انه يحب امرأة أخرى لا تمت بصلة اليها أو لأختها كاتريونا. بدأت الغيرة تنشب مخالبها في صدرها، فشعرت بالسأم، فدفعت المائدة ووقفت قائلة:

- يجب أن أخابر والدتي، لقد وعدتها ان أخبرها بموعد وصولي.

- ولمَ السرعة؟ (مشى دومينيك الى جانبها ودخلا ردهة الفندق فعلق قائلاً): كأنك تعشقين جورج فعلاً، وترغبين برؤيته بسرعة. سنمضي الليل هنا، وفي الصباح ننطلق الى ادنبرة.

دارت على عقبيها، ونظرت إليه تريد الاعتراض على « احه. لكنها تراجعت تحت وطأة نظراته العاطفية، التي أثارتها تماماً كما لو انها اكتشفت شيئاً جديداً ورائعاً. واجابته لاهثة:

- لا أستطيع أن ابقى. رجاء لا تجبرني يا دومينيك على ذلك.

- إنني متحمس للفكرة وأتوق شوقاً.

همس بصوت خافت، ووضع يده على جبينها مداعباً برقة، فاهتزت ركبتاها، واغلقت عينيها خوفاً من الاستجابة له في الردهة حيث جلست سيدة خلف مكتب الاستقبال، تمضي الوقت في

مطالعة كتاب ذي غلاف سميك.

- الا تشعرين يا آلي أنك انتقمت مني بما فيه الكفاية حتى الآن؟

تابع دومينيك همسه المشجع، وقد ترك العنان لأنامله التي أخذت ترتع فوق وجهها وذقنها. ارتبكت وحملقت به مقطبة جبينها!

- انتقمت منك! وأي نوع من الانتقام هذا؟

- تحاولين الانتقام لما فعلته معك منذ خمس سنوات مضت. ها انت ترفضين الاستجابة لي، لما قلته لك تلك الأمسية.

- لا صدقني فليس الانتقام من شيمي. انني لا أفعل ذلك.

- اذن. لماذا ترفضين؟ أخبريني لماذا؟ (توسل اليها بصوت أبح، جذب اهتمام المرأة التي تجلس خلف المكتب) لماذا تقسين علي هكذا؟ فأجابت بصوت خفيض أجش:

- أعتقد أني لا أحب العلاقات الغرامية المؤقتة.

ومضت الى غرفة الهاتف عند الباب الدوار.

حملت السماعة بأصابع مرتعشة، وطلبت المقسم، وتأملت نفسها بالمرآة امامها. فبدا وجهها شاحباً، ونظراتها مضطربة، وشفتاها الزهريتان تفتران عن أسنان بيضاء صغيرة. تنبهت لسماع صوت والدتها عبر الأسلاك توافق ثانية على تحمل التكاليف فقالت:

- انني في طريقي الى المنزل يا أمي. اننا الآن في فورت ويليام وسنصل حوالى منتصف الليل اذا حالفنا الحظ.

- ومن معك؟

- لا أستطيع ان أخبرك الآن. نامي اذا شعرت بالتعب. هل ذهبت الى المستشفى؟

- أجل. وقد عادت كاتريونا الى المنزل. انها في سريرها الآن ولحسن الحظ لم تصب بأذى كبير. أما جورج فلن يتابع عمله هذه الأيام. ويطلب رؤيتك ليشرح لك ما يريد. هل أنت بخير. اشعر انك مهتاجة، وأنفاسك متهدجة.

- لا. انني بخير يا أمي. سأراك قريباً... الى اللقاء.

اعادت ألين السماعة الى مكانها قبل ان تتيح لوالدتها فرصة لأسئلة مطولة.

حاولت ان تهدىء من روعها برهة. وعندما اطمأنت الى ذلك، مشت الى الردهة. حيث اتكأ دومينيك الى الحائط ملقياً سترته فوق كتفه. وحالما رآها قفز ليقف أمامها، وكأنه يغريها وهمس:

- هل غيرت رأيك؟ وهل سنمضي الليل هنا؟
- لا. إن امي تتوقع قدومي عند منتصف الليل.

- جبانة!

خرجت مسرعة من الباب الدوار، فصافح نسيم الليل وجنتيها، واتجهت الى السيارة حيث تبعها دومينيك، وما زالت سترته فوق كتفه ليفتح لها باب السيارة. انزلق خلف المقود وانحنى ليفتح لها الباب الآخر. جلست الى جانبه. ادار المحرك فانطلقت السيارة في سكون الليل تشق طريقها نحو الجنوب.

وعلى الرغم من أنهما أخذا قسطاً من الراحة. وتناولا وجبة طعام، فقد شعرت ألين بأنها قد استنفدت طاقتها، وجمد ذهنها، وقد شلها غموض دومينيك عن التفكير. استرخت في مقعدها على الرغم من حزام الأمان، وأغلقت عينيها مستسلمة لنوم عميق.

استيقظت مذعورة، اذ لم تسمع هدير المحرك، او أنين العجلات. وشعرت ببرد يزحف داخل السيارة. ترى ماذا حدث؟ فتحت عينيها لتجد نفسها وحيدة والسيارة واقفة. شاهدت امتداد الطريق أمامها وقد احتوى على كتل من جذوع الأشجار. فكت رباط الحزام، وهمت بالنزول من السيارة واذ بسعال دومينيك يلفت انتباهها، فتح باب مقعده فسألته:

- أين كنت؟
- أغرتني الطبيعة، وأزعجني دفء السيارة، كما هاجمتني نوبة سعال،لهذا انطلقت الى الطريق، هل تريدين رؤية النباتات؟

كان الهواء صقيعياً خارج السيارة، والنجوم تتراقص في كبد السماء الداكنة، والقمر يطل من خلف الرابية. سمعت ألين صوت سيارة ما لبثت أن ابتعدت، وخيم الهدوء ثانية. سألها دومينيك بصوت خشن:

- هل تقودين السيارة؟
- لا. انني أتعلم القيادة في هذه الآونة.
- لا بأس اذن. (ادار المحرك وأنار الأضواء الامامية. وانحنى لينظر الى لوحة العداد فندّت عنه صرخة أعربت عن دهشته) سألته ألين باهتمام:
- ما بك؟
- اننا بحاجة الى وقود.
- وكم بقي لدينا؟
- ما يكفي لمسير ستة أميال. هل تعلمين بوجود محطة قريبة منا؟
- وأين نحن الآن؟ لقد غلبني النوم بعد خروجنا من فورت ويليام. - نظرت الى ساعتها التي أشارت الى العاشرة والنصف فشهقت.
- لقد غادرنا فورت ويليام الساعة التاسعة الا ربع، فقطعنا مسافة ثمانية وسبعين ميلاً (أجابها دومينيك).
- اذن، لقد مررنا بكريان لاريش. هل انعطفت الى اليسار هناك؟
- نعم اننا الآن في طريقنا الى كيلين.
- حسناً سنحصل على الوقود اذا تابعنا طريقنا، لكننا سنضطر لايقاظ صاحب المحطة. لانهم لا يعملون ليلاً. ومن ثم سننطلق باتجاه كالاندر.

تابع دومينيك طريقه ثانية يشق صفحة الظلام، وقد كشفت أنوار السيارة عن الحائط المحيط بالطريق كي يتماسك فوق الهضبة.

لكن ضوءاً لامعاً لاح لألين عن بعد مما دل على وجود منزل قريب

منها.

وبعد برهة بدا الطريق متعرجاً، وبدأت السيارة تعلو وتهبط وكأن العجلات تمشي فوق صخور. نظرت آلين من النافذة لتتحرى الطريق، فرأت ضوءاً أصفر أكد لها اقترابها من منزل ما.

- ليس هذا طريق كيلين يا دومينيك. هل أنت واثق من أنك انعطفت الى اليسار عند كريان لاريش.

- لقد اتبعت لافتة قرأتها عند المنعطف. لكنني أرى أيضاً ان هذا ليس طريقاً رئيسياً. سنعود أدراجنا. لا بد أنني أخطأت في مكان ما.

وببطء اجتاز الطريق فوصلا الى الطريق المعبد. وما ان وصلا الى المكان الذي وقفا به قبل برهة يتأملان الطبيعة، حتى بدأ مؤشر الوقود ينذرهما بالخطر. قاد دومينيك السيارة فوق العشب حيث توقف على قارعة الطريق، وأطفأ المحرك والأنوار وقال:

- آسف يا آلي. لن نستطيع تجاوز مسافة أخرى هذه الليلة.

- ولماذا لم تملأ الخزان في فورت ويليام؟

- لقد نسيت ظناً مني أني سأجد محطة أخرى في طريقنا. الى اين ستذهبين؟

اجابته وهي تنزل من السيارة:

- لقد شاهدت عند المنعطف ضوءاً يتسرب من احدى النوافذ هناك عند المنعطف. سأطلب من صاحب المنزل ان يمدنا بقليل من الوقود تساعدنا الى الوصول حتى كيلين، أو نعود أدراجنا الى كريان لاريش حيث نملأ الخزان.

انطلقت باتجاه المنزل، فسمعت صوت باب دومينيك يصفع، فعلمت أنه تبعها. مشيا جنباً الى جنب، وأنفاسهما تتصاعد كالدخان في هذا الجو البارد. أضاء القمر بأشعته الفضية قمم الثلوج فبدت كألواح الصفيح أمام السماء الداكنة الزرقاء. كما انسكبت تلك الأشعة فوق الوادي المغطى بالأشجار، فأضاءته تاركة شعاعاً جميلاً فوق مياه البحيرة الصغيرة.

سألها دومينيك بعد مسير ميل ونصف:

- هل انت متأكدة من وجود منزل بالقرب من هنا؟ لقد قطعنا تقريباً المسافة نفسها التي قطعناها بالسيارة فوق هذا الطريق الوعر.

- إذن، سنصل حالاً اليه.

اجابت آلين وهي تستمر في سيرها متجاهلة دومينيك الذي وقف ليتخلص من نوبة السعال. تبعها قائلاً:

- ألم تقولي أنك شاهدت نوراً يتسلل من احدى النوافذ؟

- أجل. ربما نام سكان المنزل.

- انهم لعلى حظ كبير، قال بصوت أبح: لو وافقت أن ننام في فورت ويليام، لنعمنا الآن بالدفء في فراش وثير والمصباح الكهربائي ينير الغرفة.

- ولو أنك تذكرت ان تملأ السيارة بالوقود، لأصبحنا الآن على وشك الوصول الى ادنبرة.

- لكنني لست منزعجاً من ذلك، بل انني سعيد لأنني نسيت أمر الوقود (اجابها وهو يلفها بذراعه ثم قال) ان هذا يتيح لي قضاء بضع ساعات أخرى بصحبتك.

وفي تلك اللحظة شاهدت آلين شعاع القمر فوق أحد الأسطحة المنخفضة فتأكدت من وجود المنزل الذي تبحث عنه.

- ها هو المنزل (صرخت وقد حررت نفسها من ذراعه) كان المنزل هادئاً لا يوحي بالحياة، لكن دخان المدخنة الرمادي اللون، أوحى بوجود شخص ما، فهرعت الى الباب ودومينيك يقف الى جانبها. طرقت قبضته النحاسية، واذ بكلب ينبح في الداخل، ولكن ما من مجيب. عاودت الكرة الى ان رأت ضوءاً تسلل من احدى النوافذ، وفتح الباب بحذر، وظهرت به امرأة في الثلاثين من عمرها، ترتدي ثياب نوم صوفية، واندفع كلب أبيض وأسود ودس أنفه في الباب، وهو يشم بريب ما حوله. سألت السيدة:

- من الطارق؟

- آسفة لازعاجك يا سيدتي. لكننا بحاجة الى بعض الوقود فهل لديك قليل منه؟

- لا. عليك بالذهاب الى تاي مور. انه بيت الضيافة ومزرعة القرية، ويحتفظون هناك بالوقود من أجل المحاريث.

- وكم تبعد هذه البلدة؟

سألت ألين بينما استدار دومينيك ليتخلص من نوبة السعال.

- حوالى ستة أميال، اين سيارتكما؟

- هناك على بعد ميل ونصف. هل لك ان تخبرينا الى اين يؤدي هذا الطريق؟ أعتقد اننا ذاهبان باتجاه كيلين.

- لا لقد تجاوزتما كيلين. ان هذه الطريق تؤدي الى توليش جنوبي غرب بحيرة تول.

قالت المرأة وهي تنظر الى دومينيك.

- لا بد أنني اخذت اتجاهاً خاطئاً عند مفترق أحد الطرق. هل بامكاننا استعمال هاتفك؟

هزّت المرأة رأسها بالنفي لعدم وجود هاتف في منزلها فقال دومينيك:

- اذن لقد احتجزنا هنا يا ألين (هزّ كتفيه) إلاّ اذا اردت السير ستة أميال أخرى (سعل ثانية وأضاف) سننام في السيارة، وغدا ستسحبنا احدى السيارات الى كيلين.

فقاطعتهما المرأة:

- وكيف تمضي الليل في السيارة ولديك مثل هذا السعال؟ ادخلا الى المطبخ. ان زوجي يعمل راعياً فوق الهضبة وهو ليس موجوداً الآن، فاحدى النعاج تضع وتعاني بعض الآلام. اهلاً وسهلاً بك وبزوجتك.

ادخلا...

- هل انت متأكدة.

سألتها ألين بتردد، فأردف دومينيك:

- ان هذا لطف كبير منك. (أجاب دومينيك بثقة كبيرة ودفع بألين الى الداخل.) انني دومينيك لاينش من أردغور (ابتسم للمرأة) لم ارغب وزوجتي ان ننام في السيارة في هذا الطقس البارد.

- انني مسرورة بلقائكما (أجابت السيدة متأثرة بالموقف) انني جانيت غيليز ادخلا الآن.

دخلا المطبخ الواسع حيث أخذت النار تُعسعس في موقد قديم الطراز. وقد احتلت وسط المطبخ منضدة وأربعة كراسي وضعت أمام الموقد والى جانبيه احتل كرسيان هزازان مكانهما. وفي فجوة من الجدار وضع سرير مزدوج يمكن اخفاؤه بواسطة ستارة علقت على سلك معدني التصق بالسقف.

- بامكانكما استعمال السرير (قالت جانيت) ستشعران بالراحة أكثر من الكراسي. انني استضيف النزلاء في فصل الصيف. وأقدم لهما وجبة الافطار فقط. اما في هذا الوقت من السنة فانني ودونالد زوجي ننام في الغرفة الرئيسية. وينام أولادي في الغرفة الثانية. سأضع مزيداً من الفحم. هل تريدان شيئاً آخر. فنجان شاي مثلاً؟

شكرها دومينيك وقد اعتذر كلاهما عن شرب الشاي. وقفت ألين مرتبكة على عتبة الباب من الداخل معجبة بكرم ضيافة صاحبة المنزل، ولكنها رغبت أن ترفض المبيت لما سببه لها من احراج. اما دومينيك فقد سرّ بذلك، وأخذ يخلع سترته دون حرج، وهو يتفحص الغرفة بسرور.

ثم أردفت السيدة جانيت:

- لا تقلقا عند سماع الباب ودخول أحد الى هنا اذ سيعود زوجي قريباً. بامكانكما سحب الستارة لتشعرا بالراحة، وسآوي الى فراشي. طابت ليلتكما.

ابتسمت في وجه دومينيك الذي ردّ الابتسام شاكراً. ومضت وهي تغلق الباب.

جلس دومينيك على الكرسي، يحل أربطة حذائه، وانتظرت ألين

تراقبه حتى اطمأنت الى ان السيدة جانيت قد دخلت الى غرفتها خشية ان تسمعها وقالت بصوت خفيض:
- لمَ قلت اني زوجتك؟ كان بامكانها استضافتنا كزائرين.
نظر إليها ببرود. وخلع سترته ذات الياقة المتسعة على شكل الرقم (٧) وقال لها:
- لقد دفعتني الى ذلك، وسأستفيد من هذا العرض (ثم قفز في السرير. وقال) انضمي اليّ.
- لا (أجابت بعناد) سأجلس هنا بالقرب من المدفأة.

همس دومينيك وهو يفتح أزرار قميصه:
- لن تستطيعي النوم هكذا يا آلي؟
- أستطيع ذلك ولن اضطجع معك في سرير واحد.
- وهل تفعلين ذلك لو كنا زوجين.
أشاحت بنظرها الى النار كيلا تراه وهمست:
- أظن أنك فعلت ذلك عمداً.
- وماذا فعلت؟
- تناسيت ان تملأ الخزان بالوقود.
- ولماذا أفعل ذلك عمداً؟ (قال متثائباً) لقد مللت الحديث. ولم انم ليلة أمس بشكل جيد. اذ غيرت رأيك فانضمي اليّ وأهلاً وسهلاً بك. لن أشعر بوجودك وسأكون في سبات عميق.
شدتها أفكارها وهي تضع قدميها بالقرب من حاجز المدفأة لعلّها تنعم بالدفء: ان ما يحدث اليوم اعادة لما حدث بالأمس ودومينيك هو الذي ينعم بالمكان المريح.
اطفأت النور، ولم تر من دومينيك سوى شعره الأسود إذ التحف باللحاف المرقع. وعندما عادت الى كرسيها، تمنت لو أنها طلبت غطاء صوفياً منه. ونظرت ثانية الى السرير الذي لفه الظلام، فاعتراها ذاك الخاطر لماذا لا تسحب اللحاف عن دومينيك؟ مشت

حافية القدمين فوق السجادة لتنير الضوء ثانية.
وبحذر فائق رفعت اللحاف قليلاً، ولكنها وجدت ان دومينيك قد استلقى فوق الأغطية الصوفية والملاءات. ستوقظه إن أخذت اللحاف لأنه سيشعر بالبرد، فهو لا يرتدي كامل ملابسه وربما تساءل ماذا تفعل!
انها لا تريد ان توقظه لسببين: أولهما: دافع أناني ودفاعي، اذ لا ترغب ان يؤثر فيها ولن تستطيع عندئذ مقاومته اكثر من ذلك. والثاني أكثر رحمة اذ انها لاحظت آثار التعب في وجهه عندما جلسا في المطبخ وقد ظهرت هالة سوداء تحت عينيه، واحمرت أطراف مآقيه.
انه بحاجة للراحة. فلمَ أصر على اصطحابها الى ادنبرة؟ كان عليه ان يبقى في القلعة الرئيسية يعتني بسعاله، ويتركها تشق طريقها بمفردها الى الوطن، لكنه أصرّ على مساعدتها لانه يرغب أن يبقى معها حيثما وجدت. ولماذا؟ ألأنه يحبها. لا. . . بل لأنه لا يجب ان يُرفض طلبه.
تنهدت بعمق. انها تعبة، وتشعر بالبرد، وكم ترغب بالراحة.
أرادت الاستسلام والانضمام الى السرير. ودون ان تشعر فكت زمام سترتها وخلعتها. شدتها افكارها ثانية. السرير متسع وساضطجع على حافته ولن يشعر دومينيك بي وبسرعة أطفأت النور وانزلقت في السرير بملابسها.
تأملت النار، وهي تضطجع على جانبها تنعم بالدفء الذي نشره دومينيك. زحف الكرى الى اجفانها، فشعرت بحركة دومينيك الذي احاط خصرها بذراعه، وشعرت بأنفاسه تنتشر على شكل مروحة عند رقبتها.
- كنت واثقاً من انك ستأتين (همس بغتة) طابت ليلتك يا آلي.
- طابت ليلتك.
طار النوم من عينيها، وشعرت بتصلب جسمها تحت وطأة ذراعه، وشعرت بدغدغة شعر صدره وهو يلمس يدها. جمحت

عاطفتها تحت هذا الغطاء العاطفي، وتمنت ان تنضم الى صدره وتلتصق به، ليغدق عليها مزيداً من حبه، لا . . . لن تستطيع ذلك ولن تجرؤ. فهي لا تحب العلاقات الغرامية المؤقتة القصيرة التي قد تنتهي بانتهاء الليل، والتي لا يظللها الحب الحقيقي بظله الدائم.

٥ ـ بعيداً عني

طوق دومينيك ألين بذراعه، فظنت أن النوم لن يجد سبيلاً الى مآقيها، ولكن سرعان ما استجابت لنداء الكرى، ونامت طوال الليل كجثة هامدة. وفجأة شدها الى الواقع نباح كلب، وصراخ طفلين. وقبل أن تفتح عينيها مددت جسمها على السرير، وما زالت تسمع في المنزل الصغير ضجة وحركة تصدر تارة عن صوت الماء الذي يجري في الأنابيب، وأخرى عن دمدمة رجل، ثم صوت مزلاج الباب وهو يصر فوق مفصلاته. وأخيراً سمعت صوت السيدة جانيت تسأل بعذوبة:

ـ هل استيقظت يا سيد دومينيك؟ أود أن أخبرك ان زوجي دونالد ذهب الى المزرعة على دراجة ليحضر لكما بعض الوقود، وسأذهب

الآن لأحلب الأبقار وحينما أعود سأحضر لكما طعام الافطار.

- اشكرك يا سيدة جانيت (اجاب دومينيك وما زال متكئاً خلف ألين) سنكون جاهزين عند عودتك.

اغلق باب المطبخ، ففتحت ألين عينيها عندئذ وقد امتلأت الغرفة بأشعة الشمس الربيعية المغرية. استدارت بحذر، ونظرت الى وجه دومينيك الداكن. وقد أسند رأسه على يده، بينما تمددت ذراعه الأخرى تحت الوسادة، فبدت عيناه الزرقاوان بأهدابها الكثيفة تشعان سحراً، وذقنه ذات اللحية النامية، وكتفاه العاريان السمراوان أغريا ألين وهي متمددة بهدوء، بموجة غرامية لن تجد سبيلاً الى الخلاص منها، وبدا لها أن تسارع نبضها قد ملأ الغرفة دوياً. مزق خيالها صوت دومينيك يسألها:

- هل نعمت بنوم هادىء؟

سحب يده من تحت الوسادة، ورفع بلطف خصلة شعر عن جبينها، ثم ترك يده تنزلق تائهة على وجنتيها مداعبة حنجرتها، بينما أخذت اصابعه تعبث برباط الوسادة.

- اجل. وهل نعمت أنت بالراحة؟

- لم أتمتع بمثل هذا الهدوء منذ مدة طويلة. ولك الفضل في ذلك، فأنا لا احب النوم وحيداً يا الي، ليتك تقررين البقاء معي.

نظر مباشرة الى عينيها ليقرأ الجواب، لكن أنفاسها تهدجت فجأة عندما شعرت بقربه منها، وباستجابة دافئة تقفز الى وجهها، فتلاشى جمودها.

لكن الذكرى تلاطمت أمامها، وعادت بها الى خمس سنوات مضت حين كانا بين أحضان نبات الخلنج. فأيقظت تلك الذكريات حنينها. . . وها هو جنون الحب يعود من جديد. وفجأة فتح الباب قليلاً فعادت ألين الى الواقع. فتحت عينيها، ورفع دومينيك رأسه، وابتعد عنها.

ضحكت عينا دومينيك، وبتكاسل ابتعد عنها، فنزلت من السرير إذ لمحت طفلين كان احدهما على ما يبدو أطول من الآخر. حملقا بهما وما إن شعرا أن دومينيك وألين تنبها لوجودهما، حتى هربا وهما يغلقان الباب بعنف.

ارتدت ألين ملابسها بسرعة، ونظرات دومينيك تلاحقها، وانتعلت حذاءها وأغلقت سترتها ثم خرجت من الغرفة لتبحث عن الحمام. وفي الممر الضيق، التقت بالطفلين. وقف الأخ وله من العمر ثمانية أعوام الى جانب اخته ذات الستة اعوام، وهما يرتديان ملابسهما الفاخرة الخاصة بيوم الأحد، ذات الزي الاسكوتلندي المؤلف من تنورة صنعت من قماش مخطط على شكل مربعات مع جورب يناسبها، وقميص ابيض وربطة عنق من القماش نفسه. أما ملابس الفتاة فقد تميزت عن تلك الملابس الخاصة بأخيها بالقميص الأبيض المكشكش فقط فسألتهما ألين:

- اين الحمام؟

اعتراهما الخجل ولم يجيبا، بل اشارا بيديهما، وولّيا خارج المنزل هاربين من الباب الأمامي ليتمتعا بأشعة شمس الصباح الدافئة.

وعندما دخلت ألين الحمام، سمعت كلامهما مع والدتهما. حمداً لله فلا أحد يعلم انها امضت الليل مع دومينيك على انه زوجها إلاّ السيدة جانيت وعائلتها الذين لا يعرفونها جيداً. سيبقى الأمر سراً ولن تبوح به، ولكنها تخشى أن يبوح دومينيك بالسر، وهما يجلسان مع السيدة جانيت الى مائدة الافطار، لا سيما انه نال اعجابها واخذا يتكلمان ويتسامران متجاهلين وجودها. لم تكن وجبة الافطار لذيذة، فقد قدمت لهما السيدة جانيت حساء سميكاً وبيضاً مسلوقاً، ونوعاً من المعجنات مع فنجان من الشاي الساخن. وما أن انهوا الطعام حتى دخل دونالد بقامته النحيلة تعلو وجهه ابتسامة خجل، وأخبرهما أن رجلاً سيحضر الوقود من المزرعة بعد قليل.

اصر دومينيك أن يدفع الحساب الى السيدة جانيت، فاستجابت لرغبته وهي تدعوه باصرار أن يزورها ثانية، مما أيقظ غيرة ألين.

وبعد نصف ساعة، انطلقت سيارة الجاكوار بهما متابعة طريقها وأشعة الشمس تخترق عنان السماء الشاحبة، لتداعب عقد الضباب اللؤلؤي الذي أخذ يتلاشى بحياء عن سطح البحيرة. كما أشرقت قمم الجبال والهضاب البنية، فانسجم لونها مع ألوان الأشجار الخضراء، وألوان المستنقع الزمردية.

وصلا والصمت يخيم عليهما عند مفترق الطريق الذي ضلّه دومينيك ليلة الأمس. فانعطف يساراً، وبعد ميلين آخرين، انعطف يساراً باتجاه كالاندر. اختلست ألين النظر اليه، فاطمأنت أن أحواله الصحية حسنة اذ اختفت علائم الشحوب من وجهه. وأخذت تفكر بما قد يجول في خاطره.

امتد الطريق عبر الجبال ماراً بقرى ذات منازل صغيرة تتلألأ جدرانها البيضاء تحت بريق الشمس، وبحيرة تومض بلون أزرق بين الأشجار التي ترك الثلج آثاره فوقها.

توقفا في كالاندر لملء خزان الوقود، فمشت ألين الى الهاتف لتتصل بوالدتها، شارحة سبب تأخيرها، ولتعلمها بموعد وصولها.

وعندما اقتربا من ستيرلينغ لمعت القلعة القديمة والأبنية الحديثة تحت أشعة الشمس الغائمة، فأدركت ألين انهما سيصلان الى منزلها خلال ساعة أخرى. فقالت:

- ارجو يا دومينيك أن تتركني عند القلعة في ادنبرة، وسأتابع طريقي في سيارة اجرة.

اجابها ببرود:

- لا. سأقودك حتى المنزل.

تجنبت نظراته وقالت:

- لكن ذلك سيسيء الى الجميع.

- لا. سأصل بك الى المنزل لأنني احب دوماً ان انجز عملاً بدأته.

- لكنك ستحرج امي وزوجها.

- ولماذا؟ لا ارى سبباً لذلك، ورؤيتهما لا تحرجني مطلقاً.

- قد تضطرهم ان يستضيفوك عندهم.

- سيسرني ذلك.

- انك لا تفهم ما أقصد. ان والديّ لا يثقان بك، فقد اخبرتهما كاتريونا الكثير عنك. وقد هدد زوج امي مراراً بانه لن يدعك تطأ عتبة المنزل إذا اصطحبتك كاتريونا مرة اخرى، ولن يتكلم معك على الاطلاق.

اختلس دومينيك النظر اليها بطرف عينه، التي ملأتها الدهشة، ثم نظر ثانية الى الطريق، وأردف بصوت بارد:

- اذن سأزورهم لأصحح ذلك الانطباع السيء، ولا ادري لمَ تود كاتريونا تشويه سمعتي لديهما؟

- وبالطبع ستتهم كاتريونا بالكذب لتصحيح ذلك الانطباع (اعترضت ألين وقد شعرت انها ستخسر هذه الجولة ايضاً).

- صدقيني لقد كذبت عليكم جميعاً. إذ روت لكم قصصاً كاذبة عن ذهابها معي الى لندن، وعن استغلالي لها، وبالطبع صدقتم قصصها لأنها أنثى وصغيرة السن. ثقي يا ألين انها لم تثرني يوماً كما فعلتِ ولا تزالين.

همست ألين مرتبكة من صراحته:

- اتمنى لو لم تقل هذا.

- هل صدمتك صراحتي. لقد تمنيتك منذ خمس سنوات، وما زلت اعاني ألماً في اعماقي. انني صريح وأبوح بمشاعري ولا اتظاهر بعكس ما اتمنى كما تفعلين انت. كنت حينئذ صغيرة، لكنني بالأمس وعندما كنا بالقلعة، شعرت برغبتي الملحة لك، كما انتابني هذا

الشعور صباح اليوم في منزل الراعي، ولولا مجيء الطفلين لحصلت على ما أريد. ها قد علمت حقيقة مشاعري الآن، فهل سينصهر الجليد، وتأتي معي الى اردغور؟

تأثرت بعاطفته التي لا يعرب عنها الا القليل من الرجال، وفي هدوء الليل المظلم حيث تجيش العواطف، فغلت الدماء في عروقها، والتصقت بباب السيارة. إن دومينيك على العكس من غيره، اعترف لها الآن بما يكنه لها في أعماقه، وفي وضح النهار، وهو يقود بسرعة فوق طريق رئيسي صباح يوم الأحد البراق.

شعرت بتباطؤ السيارة اذ خفف دومينيك من سرعته وسألها:

- الى أي طريق اتجه؟

- انعطف يميناً. سيقودنا هذا الطريق الى وسط ادنبرة. افترض اني قطعت عهداً على نفسي بأن اراك ثانية في مكان ما، فهل تتركني في البرنسيس ستريت قرب القلعة، وأتابع طريقي بسيارة اجرة.

رماها بنظرة ساخرة وتساءل بجفاء:

- تعدينني ثم تخلفين بوعدك اليس كذلك؟ لا لن تتابعي الطريق بمفردك.

- لنفرض اني رفضت أن ادلك على الطريق؟

- إذن. سأنعطف تارة يميناً وأخرى يساراً. امشي فوق هذا الطريق وذاك الى ان تخور قوانا (ضحك بهدوء) وربما ينفد الوقود وننام في السيارة، أو في احد الفنادق الريفية، وقد نتقاسم سريراً واحداً مرة اخرى، ولعلها فكرة رائعة.

شعرت ألين بالهزيمة فغاصت في مقعدها، وأخذت تنظر الى مجموعة المداخن التي تتربع فوق اسطحة المنازل المنحدرة، وعندما وقفت السيارة أمام الاشارة الحمراء عند ملتقى الطريق بالشارع الرئيسي، حاولت ألين الهرب. لكن الضوء غدا أخضر بسرعة

فزمجرت سيارة دومينيك منطلقة ثانية الى ميرشيستون. قال دومينيك:

- لا تفعلي ذلك ثانية يا ألي. إن هذا خطر. سترشدينني الى الطريق الآن؟ ام اننا سنثبت كروية الأرض ثانية؟

- اجل. ادخل في المنعطف الثاني الى اليمين.

وخلال بضع دقائق، سارت السيارة في طريق هادىء بنيت على جانبيه منازل ذات طراز قديم مؤلفة من طابقين ذات نوافذ كبيرة في أعلاه وأسفله.

- هل هذا شارعكم؟

- نعم. قف عند الحاجز الحجري، ودعني انزل. بامكاني أن امشي.

قالت ذلك بصوت متأمل.

- لا تكوني غبية يا حبيبتي. لقد قلت سأقودك الى المنزل. وها أنذا اكرر ذلك. وعندما اقترح شيئاً أحب ان ننفذه معاً.

- انني لست حبيبتك (اجابت غاضبة).

- اين المنزل؟

- هناك حيث تقف السيارة الرمادية.

توقف خلف سيارة زوج امها الأوستن وأطفأ المحرك. ونظر اليها ويده تنزلق خلف مقعدها.

- لا تقلقي يا ألين (قال برقة) أعدك أن الأمور ستجري على احسن ما يرام. ولن أحرج احداً.

- لكن كاثريونا في المنزل.

- ألهذا يبدو عليك الحرج (داعبها بلطف) وهل تخشين أن اقابلها ثانية فاغير رأيي، وأطلب منها مرافقتي الى اردغور.

- لا افكر بهذا (حاولت أن تعترض لكنه أخذ يعانقها برقة).

- انني اريدك أنت يا ألين.

دمدم هامساً، ولمس وجنتها بأصابعه الرقيقة ، لكن بصره تخطاها وكأنه رأى شيئاً ما، وتقلص جانب فمه وقال لها:

- أعتقد أنهم أتوا لاستقبالنا.

نظرت ألين بسرعة وتحسب الى والدتها التي وقفت الى جانب السيارة وقد تأهبت لفتح الباب، وعيناها تلمعان خلف نظارتها. فهمست ألين بسرعة:

- آمل ألاّ تكون قد شاهدتنا!

فتح دومينيك بابه، ورفعت ألين قفل بابها تشير الى والدتها أن تفتح الباب. فهمست الوالدة قائلة:

- كنت انتظرك على النافذة (هبطت ألين من السيارة) الساعة الآن الحادية عشرة والنصف. كيف حالك يا عزيزتي؟ هل كان السفر مريحاً؟

بدت الأم عاطفية وفورة أنيقة كعادتها، وعكست نظراتها وداً ودفئاً. قبلت وجنتها الناعمة وهي تقول:

- نعم. اشكرك (وشعرت باقتراب دومينيك منها فقالت) أقدم لك... لكن دومينيك لم يتح لها المجال لمتابعة كلامها، بل وقف أمامها ماداً يده لمصافحة الأم وقال:

- انني دومينيك لايتش يا سيدة مورتن. لم تتح الفرصة لنا أن نتقابل منذ خمس سنوات في اردغور. خشيت ألين أن تعود بمفردها عندما علمت بما حدث، لهذا قدّمت لها المساعدة.

كادت ألين لولا اضطرابها أن تنفجر ضاحكة من تعبير وجهه الساحر الذي تلقته الأم بوجه جاد، فاستدركت الأم الأمر، ومدت يدها مصافحة دومينيك.

- إن هذا لطف كبير منك يا سيد لايتش.

فأجابها:

- بل هذا متعة لي. فألين لطيفة المعشر وأسر بمرافقتها.

- هل تسمح بحقيبتي الآن؟ قالت ألين بسرعة قبل ان يستمر في

سرد صفاتها أمام والدتها، مما قد يوقظ شكاً في اعماقها.

- طبعاً بالتأكيد. سأضعها في المنزل.

أخذ المفتاح ومضى الى صندوق السيارة. تظاهرت ألين انها لم تر ملامح والدتها الفضولية، ومضت الى البوابة المزدوجة المؤدية الى ممر قصير ونظيف مغطى، حيث انتهى بسلم المنزل الأمامي. سمعت صوت والدتها يتبعها وهي تدعو دومينيك لتناول بعض القهوة:

- هل ترغب في قدح من القهوة يا سيد لايتش؟

قبل دومينيك دعوتها بحماس قائلاً:

- اجل. اشكرك، كما انني أريد أن أتحدث اليك وزوجك عن موضوعات كثيرة.

نمّت عن الأم آهة قصيرة، ونظرت بقلق الى ألين التي دخلت المنزل لتوها.

- وهل يتعلق الحديث بكاتريونا يا ترى؟

- لا. ولكنني سأتعرض لذكرها أثناء الحديث.

اجاب دومينيك ببرود وهو يتبعها عبر الممر المتسع ذي الجدران العالية المطلية بالطلاء الأبيض، وورق الجدران الملون، والذي فرش بأكمله بالسجاد الزهري من أوله الى آخره.

- اين كاتريونا؟

سألت ألين وهي تحاول أن تخفي اضطرابها لرؤية كاتريونا، ولتحذرها من وجود دومينيك في منزلهم.

- ما زالت في السرير، فمن الأفضل أن تلتزم الفراش اذ انها تعاني من آثار الصدمة.

- هل اصعد اليها؟ (بدا اهتمام ألين واضحاً).

- بالطبع. ادخلي بهدوء (حذرتها والدتها وقالت لدومينيك) تفضل يا سيد لايتش.

مشت ألين الى غرفة كاتريونا وهي تفكر بدومينيك يا له من

شخص مسيطر، ها قد فرض نفسه في منزلها بسهولة مستخدماً تلك الجاذبية الساحرة التي ورثها عن البرازيليين وعن أمه بالذات. كما فعل بالأمس عندما مكثا عند السيدة جانيت.

قرعت ألين باب غرفة كاتريونا وفتحته بلطف. وكم كانت دهشتها عظيمة اذ لم تجد كاتريونا في سريرها. بل كانت تقف في وسط الحجرة ترتدي رداء نومها الضيق المطبع بورود، وقد أظهر تقاسيم جسدها، وتمسك رأسها ذا الشعر الأشعث براحتيها. لم تشعر كاتريونا بألين بل كانت تهمس لنفسها:

- يا الهي ماذا افعل... ماذا افعل...

فسألتها الين وهي تغلق الباب من الداخل:

- ما الأمر يا كاتريونا ماذا دهاك؟

رفعت كاتريونا رأسها بحدة وقد لمعت عيناها، وركضت لتعانق الين وهي تسألها:

- لماذا تركته يدخل... لماذا؟

- لم استطع أن امنعه، فأنا آسفة يا كاتريونا ولقد فعلت ما في وسعي ولكن لم يكن باليد حيلة.

أنزلت كاتريونا يديها، وشعرت الين بأن شقيقتها تعاني من قلق كبير، وعلى أحر من الجمر. رفعت شعرها الى الخلف، ومشت الى سريرها، واستلقت عليه وقد سحبت الغطاء حولها. بدا شحوبها واضحاً اذ تضارب لونها مع لون الوسادة الزهري، وقد تحلقت هالات سوداء تحت عينيها مما أفقدها حيويتها المعتادة. ومضت قائلة:

- اخبرتني هيلين، ان دومينيك يسكن في القلعة، فلماذا أتى الى هنا؟

- انه يريد التحدث الى والدينا (مضت الين الى السرير وجلست على حافته وهي تخلع سترتها الجلدية) لقد اتيت الى هنا كي اعلمك بوجوده.

- رأيته من النافذة وهل اخبرك الحقيقة؟

- اجل لقد سرد لي بالتفصيل ما حدث في لندن، واتهمك بالكذب.

- لقد... لقد كذبت عليك بالفعل.

- ولماذا؟

- لا اعلم.. آه لا أعلم... (دفنت رأسها بالوسادة ولم يظهر الا شعرها الأسود) دفعتني غيرتي منك الى ذلك. اذ انه معجب بك ولا يأبه لي.

- وكيف لمست ذلك؟ (سألتها ألين.) لم تكن معرفتي به وثيقة، لولا ذاك اللقاء بيننا في بيت لاكي.

اضطجعت على ظهرها ثانية ونظرت باشفاق في عيني ألين:

- ألم تلاحظي منذ البداية اهتمامه بك ونظراته اليك.

- لا ابداً.

همست ألين. وهي تنظر الى يديها، وتتذكر أن خجلها وتحفظها في تلك الأيام منعاها من النظر اليه عندما كانت تجتمع به سابقاً في القلعة. لكن كاتريونا سحبتها من عالم أفكارها وقالت:

- لقد اعتاد أن ينظر اليك وكأنه لم ير احداً مثلك من قبل، مما اثار جنوني، وأيقظ غيرتي.

ثم جلست فجأة في سريرها، وعيناها تشعان سحراً، وتابعت:

- غلت الدماء في عروقي، عندما سمعت أنكما تسلقتما القلعة معاً، وامضيتما وقتاً ممتعاً. انك تنالين دوماً ما أتمناه أنا. فأنت طويلة شقراء، وطريق النجاح ممهدة لك، ومفروشة بالأزهار والرياحين سواء في مجال الدراسة ام على النطاق الاجتماعي. حتى ان الشباب يظهرون احتراماً لك، بينما يسخرون مني. وفي آخر المطاف جلبت اهتمام دومينيك اليك، ورافقك الى الهضبة.

- لا لم اجلب اهتمامه، فقد رفض أن يصطحبني الى لندن معه لانني كنت صغيرة كما اخبرني.

أسندت كاتريونا رأسها الى تاج السرير واغمضت عينيها وقالت:

- لقد اتخذ من صغر سنك حجة يا ألين. لكنه أخفى السبب الذي دفعه لرفض اصطحابك.

فأجابت ألين:

- اجل. لقد فضل ان يرافقك أنت يا كاتريونا اذ انه يفضلك علي.

- لا على الاطلاق. (هزت رأسها يمنة ويسرة وفتحت عينيها) إذاً سأخبرك القصة من الألف الى الياء يا عزيزتي: عندما ذهبت معه الى لندن لم يصطحبني الى منزله كما اخبرتك مسبقاً، بل اخذني الى منزل صديقته وتركني عندها. (قست نظراتها) لم اتوقع أن يتصرف هكذا. مكثت مع ماريا لمدة اسبوعين بمفردنا، لكنني علمت أنهما يتبادلان الحب وسيتزوجان قريباً.

- يتزوجان؟ (شهقت ألين عندما سمعت ذلك).

- اجل هذا هو الواقع. وقد كانت ردود فعلي عنيفة مثلك الآن. فوجئت لا بل ذهلت، واحترت ماذا افعل. لقد اخبرت دومينيك ان علي ان التحق بفرقة موسيقية مؤلفة من جوني كريج ولين كراوفورد اتذكرينهم؟ فقد اخبراني عن اعجابهما بغنائي، وأنهما مستعدان لانضم الى فرقتهما. لكنني لم اجدهما في المكان المتفق عليه، ولم اجد مكاناً اقيم فيه.

- ولماذا لم تعودي الى المنزل؟

- لم استطع. (هزت كتفيها) خشيت مما سيقوله والدي بالاضافة الى انني لم افقد الأمل في العثور على جوني ولين فبقيت مع ماريا.

- وما شكلها؟ سألت ألين بفضول.

- ساحرة فاتنة، بيضاء، ذات شعر أسود وقد مياس، متكلفة ونشيطة أتت الى انكلترا لنيل شهادة اضافية من جامعة لندن. تعارفا في ريو عندما كانا طفلين. (نظرت كاتريونا بقلق الى ألين) لهذا لم يشأ ان يخوض غمار علاقات غرامية اخرى مع فتيات ساذجات ويافعات.

اتفقا على الزواج عند عودتها الى البرازيل، ورتبا كل ما يتعلق به كاقامة حفل زفاف ذائع الصيت، لا سيما أن ماريا مشغوفة به بكل جوارحها.

التزمت ألين الصمت ازاء هذا الحديث، وهي تردد في أعماقها بسكون: (إذن دومينيك رجل متزوج، اين زوجته يا ترى؟).

تابعت كاتريونا كلامها تستفسر عن وجود ماريا.

- وأين ماريا الآن؟ وهل تركها في اردغور. لم أرها تخرج معكما من السيارة عند وصولكما.

- لا انه. . . أعني انه كان بمفرده في القلعة. ولم يذكر شيئاً عنها.

نهضت ألين ومضت الى النافذة، لتخفي عن كاتريونا نظراتها المضطربة والألم الذي لاح من عينيها.

- اذن هي في البرازيل (اردفت كاتريونا) لقد اخبرتني هيلين انه اتى ليتفقد القلعة التي أوصى له بها العم هيو.

- ألم تخبرك هيلين عن زوجته؟

سألت ألين محاولة أن تتذرع باللامبالاة وتزاحمت الأسئلة في ذهنها. لماذا لم يخبرها دومينيك بأنه متزوج؟ ترى هل يخشى أن ترفض البقاء معه في اردغور اذا علمت بزواجه من ماريا؟

لكن كاتريونا اجابتها بسخرية:

- الا تعلمين أن هيلين لا تكمل قصة مهما كانت؟ فقد اخبرتنا عن صديقات دومينيك لكنها لم تشر يوماً عن رغبته بالزواج. وعندما قابلتها في غلاسكو الاسبوع الفائت، كانت واثقة من نفسها كعادتها، ولم تشر قط الى دومينيك.

توقفت كاتريونا فجأة عن الكلام، فنظرت ألين الى شقيقتها وقالت:

- ماذا بك؟
- لو لم اجتمع بهيلين، لتحملت مرارة الألم. لقد اخبرتني أن دومينيك في القلعة، وعندما علمت انك في اردغور ايضاً، ثارت ثائرتي اذ تيقنت انك ستكتشفين الحقيقة، وستعلمين انني كذبت عليكم جميعاً.

رفرفت اهدابها... فسألتها ألين:

- ولهذا طلبت من جورج ان يصطحبك معه أليس كذلك؟ وماذا كان هدفك ايضاً؟
- اجل. اردت ان احول دون لقائك بدومينيك، لا تحاولي استدراجي عن الطريقة، لأنني لم انفذها كما تعلمين. كنت اخطط ان اصل الى اردغور بطريقة أو بأخرى (عضت على شفتها) ولكن الظروف عاكستني فقد جرح جورج، وكشفت الحقيقة. ومن يدري لا بد أن دومينيك اخبر والدي الآن بأنني كاذبة. آه ماذا افعل؟
- وبماذا اخبرت والدك عند عودتك؟ والى أي حد كذبت؟
- قلت له انني ذهبت الى انكلترا بناء على طلب دومينيك، ولم أقل انني هربت من المنزل لئلا أجرح شعوره، فقد كنت ارفض من اعماقي ان اغدو ممرضة كما خطط لي، وأريد ان اصبح مغنية. ما اسخف تلك الأمور الآن!
- وهل اخبرته كما قلت لي ان دومينيك خذلك؟
- اجل، لقد لفقت ذلك ايضاً.
- ولماذا يا كاتريونا؟ لماذا؟
- لقد كنت مرتبكة، وخشيت من سوء ظن والدي بي، فأوقعت اللوم على دومينيك ظناً مني أننا لن نراه ثانية، ولن يكتشف احد الحقيقة.

- ولم تفكري قط بأنك تسيئين الى سمعة دومينيك!
- اسيء اليه؟ وكيف؟
- بتشويه سمعته امام والدينا!
- لم يخطر ببالي ذلك ابداً (دمدمت كاتريونا) أردت ان اوقظ غيرتك مني، وأؤلمك كما فعلت دائماً دون أن تشعري بمصابي. آسفة يا ألين، لم اشأ أن اؤذيك لهذا الحد.
- لا بأس. لقد تجاوزت تلك المرحلة الآن (عادت ألين الى قرارة نفسها. إن الاعيب كاتريونا لم تؤذ مشاعرها بالقدر الذي آلمتها قصة زواج دومينيك من ماريا).

لكن سؤال كاتريونا اعادها الى الواقع:

- وما الذي افعله يا ألين؟
- انزلي وبادريه التحية.
- وما فائدة ذلك؟
- سيشعر بانك غير خائفة، ولا مبالية بما نسجته من قصص.
- لكنني خائفة، وسأضطرب لو اكتشفوا كذبي، وكيف سأقابل بعدئذ والدي وزوجته. لا استطيع، لا استطيع.
- حسناً كاتريونا (قالت ألين) عليك مواجهة الموقف بحزم. سيفهمك والدك، لأنه يحبك كثيراً. انهضي لأصفف شعرك وننزل معاً.
- حسناً، (نهضت كاتريونا فشعرت بالدوار وأمسكت رأسها بين يديها) هل ارتدي ثيابي ام يكفي ان اضع ثوبي الطويل الخاص بالمنزل؟

وبعد ان اصبح منظرها لائقاً، اخذت ألين تستفسر منها عن الحادث.

- هل شعرت بالخوف كثيراً عند انزلاق السيارة؟
- لم اخف كجورج (وضحكت لذكراه لكنها استدركت الأمر

قائلة) لا بد انه تألم كثيراً، حتى انني لعبت دور الممرضة الجيدة، فأخذت اسليه ريثما أتى رجال الشرطة لانقاذنا (برقت عيناها وتابعت) ان امك يا ألين تظن انه سيتزوج منك، ولهذا طلب قضاء الاجازة معك. فهل هذا صحيح؟

- ربما. لست متأكدة ما دمنا لم نجتمع في اردغور. يبدو منظرك لطيفاً الآن. هيا بنا.

وقفتا قليلاً عند ممشى القاعة. كان باب غرفة الجلوس مفتوحاً قليلاً، فتناهى صوت السيد لوري الى مسامعهما، ثم غاب لتنطلق ضحكات دومينيك، فأدركتا ان الجو ملائم لدخولهما.

شعرت ألين بجو ودي يسود القاعة، ولكن ملامح زوج امها تبدلت عندما رأى ابنته. أنقذ دومينيك الموقف بلباقته المعتادة اذ نهض وصافح كاتريونا والابتسامة تعلو وجهه، وكأنه يعرب عن سروره برؤياها من جديد:

- اهلاً يا كاتريونا. كيف حالك. آمل ألا تكوني متأثرة بالصدمة.

فهمست ترد التحية:

- اهلاً بك. يسرني ان القاك ثانية. (نظرت الى والدها وقالت) يا ابي...

لكن والدها قطع حديثها قائلاً:

- لقد علمت... (وقطب جبينه) سنتكلم عن ذلك فيما بعد.

أشارت الأم لكاتريونا أن تجلس مكانها قرب المدفأة، ونهضت وهي تحمل اقداح القهوة وأردفت:

- هل لك ان تساعديني يا ألين في المطبخ قليلاً؟ (ونظرت الى كاتريونا نظرة مشجعة).

انسحبت الأم من الغرفة وتبعتها ألين. دخلتا المطبخ اللامع الذي زخرف بمهارة وجهز بأدوات حديثة للطهي، فغدا بهذا التجديد وكأنه

لا ينتمي الى باقي المنزل القديم. وضعت الأم مئزرها وقالت:

- ارى أنه من الأفضل ان ادعو السيد لايتش لتناول الطعام.

- لا، ولماذا؟ حاولت ألين ان تمنع والدتها كيلا تحقق رغبة دومينيك.

- لم اعهدك هكذا من قبل. إنك تحسنين اكرام الضيف عادة فما بالك الآن؟ ألم يتحمل مشقة السفر حتى أتى بك الى المنزل؟ (نظرت الى ملابس ألين وقالت) ارى ان عليك تبديل ملابسك فقد نمت بها كما يبدو. ألم ترتدي الثياب نفسها عند مغادرتك يوم الخميس الماضي؟

كانت الأم تهتم بشراءملابس تتماشى مع الطراز الحديث وتختار ثيابها وثياب ابنتها من دور الأزياء الخاصة. فأجابت ألين:

- اجل يا امي.. رجاء لا...

- اذهبي لتبديل ثيابك قبل العشاء. كما عليك أن تغسلي شعرك. اما الآن فامزجي هذه القشدة لتزيين الكعك. (فتحت الأم الفرن وقالت) آمل أن يروق الطعام البسيط للسيد لايتش.

- ومن يستطيع ان يذم كعكاً صنعته بنفسك (قالت الين وهي تفتح الثلاجة وتخرج القشدة من علبة من الورق المقوى) ولماذا دعوته لتناول العشاء؟

- وما المانع في دعوته؟ (رفعت الأم قطعة اللحم من الفرن وأخذت تتفحصها) ترى لماذا شوهت كاتريونا سمعته امامنا (نظرت الى الين بطرف عينيها) لقد تصرفت جيداً اذ اقنعتها أن تلقاه ثانية، حان الوقت ان تستدرك موقفها. اعتقد انك تعلمين انها كذبت علينا؟

جهزت ألين خفاقة الكهرباء، ووضعت القشدة في وعاء زجاجي وقالت:

- وهل انزعج والد كاتريونا كثيراً؟

- لا ادري. فقد تعرض السيد لاينش للموضوع بشكل عابر اذ قال له: يسرني يا سيدي ان اصطحب الين الى المنزل من اردغور، كما فعلت سابقاً مع كاتريونا اذ قدتها الى لندن بناء على رغبتها. مما جعل غضب لوري يتلاشى امام الحقيقة. هل تعلمين ان تلك الحقيرة اقنعته باننا دفعناها الى طلب ذلك منه؟

- وماذا قال عمي؟

- لا شيء. بدا الارتباك عليه واضحاً لكنه لم يخبر دومينيك ان كاتريونا لفقت قصة مختلفة تماماً.

- اذن لقد صدقتِ دومينيك يا امي؟ علقت الين وهي تصب القشدة.

- اجل. ان كلامه مقنع. فلقد اعتذر بانه لم يستطع مساعدة كاتريونا اذ كان عليه أن يستعد للسفر الى البرازيل من اجل اتمام زواجه. ويبدو انه لم يستضف كاتريونا في منزله كما اخبرتنا، بل تركها بعهدة صديقته التي غدت زوجته فيما بعد. انني اخشى دوماً من طبع كاتريونا هذا. فهي تكذب عندما لا تريد ان يعرف والدها بنواياها الحقيقية.

تابعت ألين مزج القشدة حتى غدت سميكة. وهي مستغرقة في افكارها: كيف تعرف المرأة اذا كان الرجل متزوجاً ام لا عندما لا يخبرها بذلك بصراحة. ولماذا تأثرت عندما بدت لها تلك الحقيقة واضحة؟ يجب ان يغمرها السرور اذ اتضحت الحقيقة قبل ان توافق على العيش معه في اردغور. آه ان الخيبة تسحقها، لقد خدعها دومينيك. لماذا يطلب منها العيش معه وله زوجة تنتظره في البرازيل؟ ترى هل طلق ماريا، ام انفصل عنها؟ ام انهما اتفقا على زواج يتيح لكلا الطرفين التمتع بحريته الشخصية، ولو ما زال مرتبطاً بالزواج كما تقرأ في هذه الآونة في بعض الكتب. اعترتها موجة اشمئزاز. لا لن تتورط في مثل تلك العلاقة. انها لا تستطيع فهي انانية بطبعها،

وتحب امتلاك من تحب، ولا تستطيع ان تقاسم حبها امرأة اخرى.

فقطعت الأم افكارها بصوتها الحاد وقالت:

- الين. لقد سألتك اين قضيت ليلة الأمس؟

- في مكان قريب من كيلين.

كان عليها ألا تخوض بالتفاصيل خشية أن يكون دومينيك قد اخبرها شيئاً آخر.

- هل نزلت في فندق ما؟

- اجل ليس فندقاً بمعنى الكلمة؟ (بدأت تدرك ان كاتريونا تكذب عندما تحرجها أعين والديها الفضولية. فلا تجد بداً من نسج القصص).

- نوع من الفنادق؟ (اجابت الأم) وماذا تعنين بذلك؟

- اقصد ان الفندق مغلق في هذا الوقت من العام إذ لم يبدأ الموسم لسياحي بعد.

- لقد اخبرني السيد لاينش انه انعطف في طريق خاطىء عندما غفوت. ثم نفذ الوقود فاضطر رغماً الى النوم في منزل أحد الرعاة. وقد مدح الراعي وزوجته كثيراً حيث قدما لكما المطبخ كي تناما على الرغم من أن المكان لم يكن مريحاً.

- لا بأس به. (اخذت ألين تصب القشدة فوق الكعك المحشو بالفاكهة.)

- هل وضع سرير في المطبخ؟ كما كنا نرى في ذاك المنزل الصغير في غالووي حيث كنا نقضي العطلة الصيفية؟ سألت الأم وهي منهمكة بتحريك مزيج من الحلوى لتصبه في وعاء من الصفيح الرقيق الساخن.

- اجل. (يبدو انها لا تعرف كيف تكذب ولقد اكتشف دومينيك ذلك. على الأقل ليست كاذبة مثله. انه ليس بكاذب بل بمخادع، فقد خدعها اذ لم يخبرها عن حياته الخاصة).

- ومن منكما احتل السرير؟ ام اشتركتما معاً؟ سألت الوالدة بحدة وهي تضع الحلوى في الفرن.

- ماذا تقصدين يا امي؟

- اردت فقط ان استنتج ما يربطك بدومينيك لايتش. هل علمت بوجوده في اردغور عندما خططت للذهاب الى هناك؟

- لا. لم اعلم. لقد فاجأني وجوده تماماً. كيف تشكين بي؟

- ولماذا لا اشك بذلك، وقد قطعت المسافة من اردغور الى هنا بصحبة رجل متزوج، وربما شاركته سريراً واحداً ليلة الأمس.

- وهل يدل ذلك على وجود علاقة بيننا؟ (اعترضت الين) كنا سننام في السيارة في جو متلاصق اكثر لو لم يقدم لنا الراعي المعونة.

وأضافت مارغري بقلق:

- لقد رأيته يعانقك عندما وصلتما الى هنا وسمعت رأيه فيك، وعن سروره بصحبتك كما قرأت نظراته المتيمة عندما دخلتِ القاعة. فكيف تفسرين ذلك؟ أوتقولين ببساطة لا شيء بيننا؟ (استنشقت الهواء ببطء وقالت) صارحيني يا ألين هل بينكما علاقة معينة؟

شعرت ألين بارتعاش يدها وهي تضع الملعقة جانباً، وسألت محاولة أن تغير دفة الحديث.

- في أي مستشفى ينام جورج؟

- الانفيرماري إن الزيارة ممكنة بعد ظهر اليوم. هل تتحاشين عمداً الجواب على سؤالي؟

- اجل يا امي. (وقفت الين وجهاً لوجه مع والدتها وأردفت) لأني لا اجد جواباً لسؤالك. اذا حاولت ان اشرح لك ما بيننا فلن تفهميني، ليس بيننا علاقة بالمفهوم الذي تقصدين، أو بالأحرى اني احاول ان اتجنب مثل تلك العلاقة. لكنه... لكنه... (تنهدت بعمق) لم اعلم انه متزوج الا قبل قليل حيث اخبرتني كاتريونا بذلك في غرفتها.

حملقت مارغري بها عدة دقائق، ثم مضت لتفتح احدى الخزائن

لتخرج ما يلزمها من الأطباق.

- فهمت الآن، ولن ادعوه للغداء.

دمدمت ألين:

- حسناً سأذهب لأبدل ملابسي.

- حسناً يا عزيزتي. استحمي أن احببت، وسأدعوك عندما يصبح الطعام جاهزاً.

هزت ألين رأسها وخرجت من المطبخ. وفي المشى نظرت من بين مفصلات الباب عبر القاعة، فوجدت دومينيك يقرأ صحيفة الأحد وقد ساد الغرفة الهدوء مما أوحى لها بأن كاتريونا ووالدها قد غادرا المكان.

تمنت من اعماقها ان تدخل اليه، وزاد الاغراء من عزمها، الا انها سمعت صوت باب المطبخ يفتح، فمشت لشأنها. اقتربت منها مارغري وهي تهز رأسها وطلبت منها أن تأخذ حقيبتها التي ما زالت حيث وضعها دومينيك.

- خذي حقيبتك ورتبي ملابسك. فتراجعت الين عن القاعة والتقطت حقيبتها، وصعدت الى غرفتها بينما سمعت صوت والدتها وهي تتكلم الى دومينيك.

وفي طريقها الى غرفتها مرت بحجرة كاتريونا فسمعت صوتها يرجو والدها وكأنها تقنعه بأمر ما.

دخلت غرفتها وأوصدت الباب، فشعرت بالاطمئنان والسرور بين رحاب غرفتها التي شاركتها أفراحها وأتراحها منذ احد عشر عاماً حيث سكنت هذا المنزل مع عائلتها.

لكنها لم تشعر يوماً بما تشعر الآن به، انها ممزقة بين عقل وعاطفة، فحبها لدومينيك يدفعها اليه بشكل لا هوادة فيه، ومثلها وتربيتها تزجرانها. إن دومينيك رجل متزوج وستحرق نفسها ببوتقته، كما انها ستحطم مشاعر زوجته.

مضى وقت طويل، وهي ما زالت تتصارع مع أفكارها، ثم ما

لبث أن سمعت صوت الباب الأمامي يغلق بهدوء فجذبها من صومعتها، نظرت من النافذة لترى دومينيك يغلق باب الحديقة الحديدي. ولمّا نظر الى نوافذ الطابق العلوي، خطت الى الوراء بسرعة خشية أن يراها. حملق برهة مقطب الجبين، ثم هز كتفيه، وانطلق الى سيارته. فتح بابها، وانزلق خلف المقود، وخلال ثوان أخرى دوّى صوت السيارة التي أخذت تشق طريقها بعيداً. . .

٦ - نيران الشوق

أخذت ألين ملابسها وهي تفكر كيف استطاعت امها ذات الشخصية القوية أن تصرف دومينيك بلباقة. وكيف أقنعته بالرحيل متخلياً عن اصراره على البقاء عندهم. ارتدت طقماً من الصوف المخطط بألوان سوداء وخضراء، ذا قميص وتنورة طويلة وحزام عند الوسط، وما زالت تجتر أفكارها: ترى هل ستقابل دومينيك ثانية ويرجوها أن تبقى معه في قلعة اردغور؟ حاولت ان تقنع ذاتها انه لن يعود، واذ بالكآبة تزحف في أعماقها، لأنها لن تتمتع بعد الآن بفيض عواطفه. وعندما تركها منذ خمس سنوات وحيدة مع ذكراه، عاشت كثيراً مع ثقتها المطلقة بانه قد خذلها. اما الآن فلن تنساه انه بحاجة اليها وقد أخبرها بذلك بنفسه وفي وضح النهار. . . ترى هل

ستؤهلها شجاعتها ان تتظاهر باللامبالاة؟ ام انها سترمي بالقيم والتقاليد في البحر؟ وتنسى طموحها بأن تغدو محامية لترتمي في أحضانه كرفيقة؟

ولكن قصة زواجه من ماريا وكتمان الأمر عنها، دفعا بها الاّ تستسلم لعواطفها، وأن تصمد في وجهها كيلا تخضعها تلك العواطف الى العيش في كنف انسان مخادع. أخذت أفكارها تتلاطم في بحر من الاضطراب الى أن سمعت صوت والدتها يقول برقة من الخارج:

ـ إن الطعام جاهز يا الين. ستتناول كاتريونا طعامها في غرفتها فهي لا تشعر بتحسن كي تنزل الى غرفة الطعام.

ـ حسناً سآتي خلال دقائق يا امي.

رتبت شعرها ووضعت القليل من مساحيق التجميل بمهارة، فبدت سكرتيرة محترمة، ثم هرعت الى غرفة الطعام المشرقة، حيث أخذ زوج امها يقطع اللحم، بينما أخذت امها تقدم الخضار.

فاجأها زوج امها اذ قال:

ـ من المؤسف ان السيد لاينش لم يتناول الطعام معنا. فقد كنت شديد الحماس لاسمع بالتفصيل تتمة مغامراته في الأدغال بحثاً عن والده. لم اعلم انه مختص في الدراسات الانسانية. بل ظننت انه شاب لعوب كما يبدو من سيمائه. على الانسان الا يطلق حكمه جزافاً وبناء على الشائعات.

تأملته الين قائلة:

ـ وهل شرحت لك كاتريونا لماذا نسجت تلك الأكاذيب؟

بدا لها قاسي الملامح كما عهدته على الرغم من كونه لطيفاً ورقيقاً في معاملتها منذ أن عرفته..

تنهد وهو يهز رأسه يمنة ويسرة:

ـ اجل. لقد اخبرتني. لكنني لم افهم ما الذي دفعها الى ذلك. ادعت انها تغار منك، وانها مهملة في المنزل، وأنها تود تنفيذ ما تريد.

لا بد اني عاملتها بقسوة اذ منعتها من الانضمام الى تلك الفرقة الموسيقية ظناً مني انني احميها. لقد شعرت انها ستخفق لا محالة. واعتقد ان مواهبك اغنى منها، ومن اولئك السيدات اللواتي اردن تشكيل تلك الفرقة. الا توافقينني يا مارغري؟

ـ نعم يا عزيزي. علينا أن ننسى ما حدث منذ خمس سنوات لأننا لن نرى دومينيك بعد الآن (اردفت وقد ارتسمت بسمة على شفتها) اذ لن يذهب أحد منا الى البرازيل.

فسألتها الين:

ـ وهل اخبرك انه سيعود الى البرازيل؟

ـ لا ولكني اعتقد هذا (اجابت بحزم وهي ترفع الأطباق الفارغة) لقد اخبرني انه لن يعود الى اردغور لأنه لا يحب المكان في هذا الوقت من العام. ويبدو انه لا يحتمل العيش بمفرده خاصة وقد اعتاد على حياة اجتماعية حافلة في ريو دي جانيرو واعتقد انه سيلحق بزوجته.

خرجت الأم من الغرفة، بينما راحت الين تحدق في الأزهار الربيعية التي توسطت المائدة. لا بد ان تعرف ماذا قالت امها لدومينيك حتى دفعته لمغادرة المنزل! وعندما انهى زوج امها الطعام حملت طبقه الى المطبخ. حيث سألت امها:

ـ كيف دفعت دومينيك الى مغادرة المنزل؟ وماذا قلت له يا امي؟

ـ سألني عنك فأخبرته بانك كنت متعبة وتفضلين الاسترخاء في غرفتك فتأسف لأجلك، وتمنى ألا يكون سبباً في ازعاجك. طلب مني ان اسألك متى سيراك ثانية؟ لكنني اجبته بشكل تلقائي انك لا ترغبين برؤيته ثانية، كما اني أرى من الأفضل لكما الا تلتقيا ثانية.

ـ وبماذا اجابك؟

- لم يقل الكثير... ومقني بنظرة غريبة وقال عليّ أن اغادر الآن.

عبثت الين بقطعة الكعك الموضوعة في صحنها، وهي تفكر بما قالته والدتها.

اجل لقد شعرت امها تماماً بما يدور في داخلها من اندلاع عاطفي تأجج عند لقائها الوثيق خلال اليومين الماضيين. وادركت الين الآن ان تلك العاطفة المضطربة سرعان ما تخمد بعد تحقيق رغباتها، وبسرعة قد لا تتجاوز ستة أشهر أي مدة وجود دومينيك في اسكوتلندة. ومع هذا التفكير المنطقي سيطر عليها شعور مقلق حال بينها وبين الرغبة في تناول الطعام. إلا انها عاودت التفكير بعلاقتها التي لم تتجاوز حدها الطبيعي فسرى السرور في اعماقها اذ غادر دومينيك ولن تراه بعد الآن.

وفجأة ارتجفت بشكل لا ارادي، فسقطت الملعقة من يدها. اذ اخذت موجات الاستياء تجتاحها. لقد غادر دومينيك، وتركها فريسة لأفكارها ودون أن تعلم مكانه فيما لو ارادت ان تلحق به.

اخترق صوت والدها الضباب الذي لف تفكيرها اذ قال:

- تلقيت مخابرة من المستشفى يدعونني ان احضر لهم بعض الأدوية (لا بد ان زوج امي الذي يعمل صيدلياً في المستشفى، يمكث اليوم في المنزل شريطة ان يعود للمستشفى عند استدعائه ثم اردف) هل تودين أن تلقي نظرة على جورج في المستشفى؟

فأجابت الأم:

- انها فكرة جيدة. سيسر جورج برؤيتك. الا تريدين تناول الكعك يا الين؟

انحنت الأم لتنظر في وجه الين، فلمست الين في تلك النظرات اضطراباً وقلقاً ينذر بوابل من الأسئلة التي لن تنتهي، والتي لن تجد الجواب له. فاستدركت الأمر وحاولت ان تبدو هادئة وقالت:

- انه كعك لذيذ يا امي، ولكني لا استطيع أن اتناوله باكمله.

سأصعد الى غرفتي استعداداً للخروج.

وسرعان ما جلست على السرير، وأمسكت رأسها بين راحتيها. اعتراها شعور رهيب طغى على تصرفاتها، وتدفق في اعماقها... ما طعم الحياة الآن بعد ان ذهب دومينيك؟ ستفقد الحياة احلى معانيها... لا انها لن تحيا بدونه، وسيغدو كل شيء الآن مملاً وكئيباً. ولكن الواقع هزها من جديد: يجب الا تستسلم لهذا الانفعال... ولتنظر الى مستقبلها... وستحقق ما تصبو اليه نفسها، وتغدو محامية. لا يوجد رجل في الوجود يستحق أن تتنازل من اجله عن طموحها... لان اياً منهم لن يفعل ذلك ولو من اجل عينيها الزرقاوين. ومن السخف ان تدع دومينيك يغير مجرى حياتها الآن.

شعرت بالارتياح، وهي تفكر بموضوعية، وبأن عملها أهم ما في الوجود، فقررت ان تذهب لترى جورج. حاولت ان تنعم بصفاء الذهن لان جورج لن يسر بسكرتيرة تشغل بالها مآسي شخصية. لقد علم دومينيك من والدتها بأنها ترفضه الآن، كما رفضها من قبل. ستطوي هذه القصة التي انتهت الى صالحها.

ارتدت معطفاً جديداً ذا لون أصفر داكن يتماشى مع ردائها الأخضر، ووضعت فوق شعرها الأشقر قبعة خضراء كبيرة عريضة الحواف تمنحها هدوءاً ونضجاً. سرت لمنظرها واتجهت الى السيارة. تحدثت مع زوج امها أثناء الطريق عن التغيرات الطفيفة التي طرأت على اردغور. قادها عمها حتى وصلا الى باب الجناح حيث يمكث جورج ثم تركها ليذهب الى قسم الصيدلة واعداً اياها بالعودة بعد ساعة.

دخلت الين الجناح لتجده غاصاً بالزوار، ولتجد جورج وحده مستنداً على الوسائد التي وضعت خلف ظهره وقد اغلق عينيه. حلقت الين برهة في وجهه النحيل الضيق ذي العظام البارزة، وبشعره البني الأشيب، وأخذت تفكر كيف تدرعت بالخطوبة اليه

كي تحمي نفسها من دومينيك.

ترى هل كان جورج عازماً على خطوبتها، كما أخبرتها والدتها؟ وهل كان الأمر جاداً لولا ذلك الحادث؟ ام ان له غاية ما كما اخبرها دومينيك. حرّك احد الأشخاص كرسياً في الجناح، فأصدر ضجة، ففتح جورج عينيه واذ بألين أمامه فقال:

ـ الين... (سأل وهو يحاول أن يراها بوضوح دون نظارة) احضري نظارتي رجاء. اعطته الين نظارته ذات الاطار الداكن فوضعها على عينيه. وعلى الرغم من شحوبه اللذي ازداد عن المعتاد، لم يبد مريضاً كما توقعت أن تلقاه.

ـ كيف حالك؟

ـ ما زلت اشعر بالرجفة لأن العظم المكسور يعود الى مكانه. لقد اخبرني الطبيب أن الاصابة ليست بالغة، وانني سأتحسن بسرعة عندما اتكىء على العصا. الحمدلله اننا لم نصب بأذى ابلغ من ذلك. ما أخبار كاتريونا؟

ـ انها في سريرها. وقد نهضت لمدة قصيرة قبل الغداء.

ـ يسرني ان اسمع ذلك (ثم قال بلهجته المعتادة كرجل اعمال) انني آسف يا الين اذ لم اصل الى اردغور في الوقت المحدد. لا ادري لم تكاتفت الظروف ضدنا (نظر اليها وأردف) ولعل في ذلك خير لنا.

ـ ربما.

ـ كيف استطعت الوصول الى هنا بهذه السرعة (سألها وهو يضطجع) لم اتوقع عودتك قبل الغد بما ان المواصلات العامة على ذاك النحو بين المنطقتين.

ـ لقد اوصلني احد معارفي الى هنا.

ـ اجل... هل تقصدين بأحد معارفك ذاك الشاب الذي خشيت كاتريونا من اجتماعك به.

ـ وهل اخبرتك عن دومينيك؟ (استفسرت الين واتسعت عيناها) ولماذا؟

ـ لأنني استدرجتها.

ـ وكيف... ولماذا؟

ـ اتت مساء الخميس لزيارتي وطلبت مني ان اصطحبها معي، فلم افهم ما قالته... فدعوتها لتناول القهوة. وأخبرتني القصة من البداية.

ـ وأية بداية؟ (سألته وقد ارتسمت تكشيرة على وجهها. فهي تعلم مدى مهارة جورج في استدراج الناس واستقصاء ما يريد من المعلومات).

ـ اخبرتني انكما التقيتما بدومينيك ابن اخ السيد هيو لايتش اثناء اجازتكما في اردغور منذ خمس سنوات...

ـ نعم! هذا صحيح.

ـ هل تعلمين ان السيد هيو كتب وصية يوصي لدومينيك بالقلعة، مما جعل ابنته تعترض على هذه الوصية لأن القلعة يجب أن تؤول الى ابنها... بعد وفاة جده، ولكنها خسرت القضية، فآلت القلعة الى دومينيك؟

ـ لست واثقة؟

ـ لكن شقيقتك اكدت لي انك اخترت اردغور لقضاء الاجازة معي لأنك ترغبين أن تلتقي بدومينيك ثانية.

ـ لا علم لي اطلاقاً بوجوده هناك! ومن اين لي معرفة ذلك، ولم اتصل به منذ خمس سنوات مضت؟ (حاولت الين ان تخفف من حدة غضبها الذي تفجر ثانية بسبب كذب كاتريونا المتواصل، فتنفست بعمق، وقررت أن تغير دفة الحديث فسألته) وماذا افعل بشأن السيد فاركهارسون في فورت ويليام؟ فانه يتوقع زيارتك له صباح الغد.

ـ سنتكلم عنه فيما بعد. اريد ان اشرح لك الآن لمَ اصطحبت كاتريونا الى اردغور.

فأجابته بقسوة:

- لا داعي لذلك فلقد شرحت لي الأمر لتوها.

لكنه اصر متابعاً:

- لقد اخبرتني ان علاقة حب تربطك بدومينيك.

- اجل، لقد جذبني في وقت مضى. كما ان كاتريونا تكن له الاعجاب نفسه. (ضحكت وقد هزت كتفيها لا مبالية) لقد فتنا به اذ ذاك وعمرنا ثمانية عشر عاماً، وأنت أدرى بسخف المراهقات، ولم تكن العلاقة جدية قط.

- ليست علاقة جدية! (اعاد تلك الجملة وهو يفكر) لمَ أرادت كاتريونا ان تحول دون لقائكما؟ ارادت ان تحذرك منه لئلا يستغل عواطفك النبيلة تجاهه، فأنت لا تعلمين انه تزوج من امرأة برازيلية عندما غادر اردغور منذ خمس سنوات مضت. ترى هل تحققت امنيتها؟

دهشت الين من حديث جورج ولم تجد جواباً مقنعاً دون ان تخذل شقيقتها كاتريونا. فنظرت بدهشة حول الغرفة وحدقت بالأزهار التي وضعت الى جانبي السرير، والى المرضى الممددين على الأسرة الأخرى. وأجابت:

- إن لكاتريونا هدفاً آخر لم تفصح عنه. ولو تمكنت من الوصول الى اردغور، لما استطاعت أن تحول بيني وبين دومينيك. لأني اجتمعت به مصادفة حين كنت انتزه بالقرب من القلعة عصر يوم الجمعة. وعندما علم في اليوم التالي انني مضطرة للعودة الى ادنبرة، عرض عليّ خدماته، وقادني في سيارته فانطلقنا بعد ظهر الأمس.

- ومتى وصلتما الى هنا؟ قطب جبينه وبدا الارتباك عليه.

- صباح اليوم. لن تكذب فقد تخبره والدتها الحقيقة.

- اوه.. (احتد ثانية) اذن قضيتما الليل في مكان ما (قذفها بنظرة يراودها الشك) وهل تعتبرين ذلك تصرفا لائقاً؟

- لم يكن لدينا خيار الا ان تنام في السيارة (نظرت اليه ببرود) اذ ان الوقود نفد بين فورت ويليام وكيلين.

- يا الهي. وهل تتوقعين ان اصدق هذه القصة؟

- اجل لأنني اخبرك الحقيقة (اجابته وقد نفد صبرها من استجوابه).

فأجابها هازئاً:

- وكأنني اسمع احدى القصص الخرافية. ألم يخطر لأحدكما أن يتفقد خزان الوقود قبل الانطلاق.

- اني اوافقك اننا تصرفنا بغباء... لكننا... (وسكتت وقد عضت شفتها السفلى. اذ تذكرت المشاحنة التي خاضاها قبل الانطلاق في بهو الفندق في فورت ويليام. اذ لم يضبط احدهما مشاعره ولم يفكرا بالوقود حينئذ فتابعت ببرود) لقد نسينا.

- واين مكثتما تلك الليلة؟

- في منزل وضيع لأحد الرعاة.

- وهل استضافكما الراعي كزوج وزوجة، ام كشخصين عازبين؟

سألها بحقارة وقد لفهما سكون مقلق، وهما يتبادلان النظرات. راودتها خواطر غاضبة وأرادت ان تخرج مسرعة من الغرفة، لكنها كبحت جماح غضبها والتزمت مكانها.

- وهل هذا يهمك؟ (اضافت ببرود) لقد عاد دومينيك على الأرجح الى البرازيل. فهو لا يحب اردغور في شهر آذار، ولن اراه ثانية (فتحت حقيبتها، وأخرجت دفترها وقلم الرصاص) وقالت: وماذا عن السيد فاركهارسن؟ هل اتصل بابنته هاتفياً لأخبرها عن سبب تأخيرك، وانك ستذهب الى فورت ويليام حالما تتمتع بصحة جيدة؟

نظرت الين الى الورقة وأمسكت بالقلم. لكنها لم تسمع الأ ضربات قلبها تشتد وتعلو. فلقد ايقظ استجواب جورج غضبها وكأنها شاهد في قاعة المحكمة. وتمنت لو استطاعت أن تدير دفة

الحديث، كما قررت ان تنسحب من الغرفة اذا عاود توجيه الأسئلة، وقد تقدم استقالتها اذا اقتضى الأمر.

وما اثلج صدرها انه اخذ يتكلم عن العمل، كما وافق على ان تتصل بالسيدة روبرتسون وتخبرها بما عليها أن تفعل. وبينما كان يملي عليها نص الرسالة دخلت طفلتاه سارة وفيونا بصحبة سيدة جميلة ذات شعر أحمر تبلغ الستة والثلاثين عاماً قدمها اليها على انها السيدة كاتي فوريس.

- اشكرك يا الين (قال جورج عندما نهضت وقدمت كرسيها للسيدة كاتي واعتبرت ان عليها المغادرة فقد نم صوته عن ذلك) احضري لي هذه الرسائل مساء غد لأوقعها، كما آمل ان تخبريني بما يحدث في المكتب.

- بالطبع (وضعت دفترها جانباً وقد لاحظت ان طفلتيه تحملان له الهدايا فشعرت ان لا مكان لها بينهم فانسحبت دون ان يلاحظوا).

كان زوج امها ينتظرها خارج الجناح ليعود بها الى المنزل. مضت الين الى غرفتها فور وصولها، ورمت بمعطفها وقبعتها فوق السرير. ثم مشت الى غرفة كاتريونا. دخلت حجرتها وأوصدت الباب وقد استندت اليه تراقب كاتريونا التي جلست في سريرها محاطة بالوسائد، تهز رأسها، وتفتح وتغمض عينيها وفق انغام الموسيقى الصاخبة التي تستمع اليها من مذياع صغير، وأوراق الشوكولا البنية الفارغة مبعثرة فوق السرير.

جاء صوت الين عالياً يفوق صوت الموسيقى. ففتحت كاتريونا عينيها وأخفضت صوت المذياع وقالت:

- هل عدت الآن؟ وكيف صحة رئيسك؟

- انه يتماثل للشفاء (ومشت الى أعلى السرير) كيف حدث بك الجرأة ان تخبريه عن علاقتي بدومينيك؟ سألتها بحدة.

فقطبت جبينها وقالت:

- اوه... لقد طرح علي مئات الأسئلة. وهل يتصرف هكذا

دوماً؟ ليس الزواج منه ممتعاً على ما اظن. لقد اراد ان يعرف مدى علاقتك بدومينيك منذ خمس سنوات. لمعت عيناها فجأة بالخداع، وقد تحركت شفتاها الورديتان قائلة: لهذا اخبرته انك كنت تهيمين حباً بدومينيك.

فأجابت الين بيأس:

- ليس لك الحق في ذلك.

- ربما. لكنه كان... لا اعلم ما اقول... (زال الانشراح عن وجه كاتريونا وقالت) لا تكوني قاسية يا الين فلقد فعلت هذا من اجلك.

- من اجلي... (صرخت الين واستدارت لتنظر من النافذة) لقد مللت اولئك الأشخاص الذين يتدخلون في حياتي ويدّعون ان ذلك لمصلحتي. لقد تدخلت امي أولاً، وجورج ثانياً وأنت ثالثاً. وهل يعرف احدكم اين تكمن مصلحتي؟ ومن يهتم بي منكم؟

ساد صمت مطبق على الغرفة، لم يخالطه الا صوت الآلات الموسيقية التي تناهت الى اسماع الين مضطربة كأعماقها التي تتمزق اضطراباً. امسكت وجهها براحتيها محاولة ان تستعيد اتزانها.

- اسمعيني يا الين... انني اسفة لقد اخبرته بأن رجلاً آخر يشغل تفكيرك لأعزز موقفك امامه، لأنه يعتقد انك وبشكل بديهي ستخضعين له ولم اعلم ان هذا سيؤثر فيه.

نظرت اليها ألين ببطء وقد اتسعت عيناها من الدهشة وحلقت بشقيقتها وسألتها:

- وما الذي اعطاك ذاك الانطباع؟

- لقد كان يتكلم عنك عندما ذهبت لمقابلته، وكأنك شيء مسلم به. (جمعت كاتريونا أوراق الشوكولا لتضعها في العلبة) لقد قرر ان يخابرك هاتفياً.

- هل يبدو ذلك انني سلعة بين يديه. اراد أن يعلمني عن موعد وصوله الى اردغور اذ انه يلتزم الدقة في مواعيده.

نظرت كاتريونا اليها بسخرية، وقالت وهي تسحق الأوراق بيدها:

ـ ما زلت ساذجة يا الين على الرغم من انك كبرت (تنهدت وتابعت) لقد اراد أن يخبرك انه لن يتبعك.

تذكرت الين ان دومينيك حذرها من ان جورج لن يلحق بها الى اردغور فردت بحرارة:

ـ ولكنني اعلم ان عمله يوم الخميس استغرق وقتاً أطول مما توقع ولهذا لم يستطع أن يرافقني.

لكن كاتريونا اجابتها ساخرة:

ـ لا لم يمنعه العمل. لكنه رجل جبان لم اقابل مثله من قبل. لقد اخبرني ان ابنته منعته من الذهاب، كما ان النشرة الجوية حذرت من وجود منزلق جليدي ومن هطول الثلوج، فرأى انه من الأسلم ان يلتزم مكانه.

ـ حسناً. ان هذه الأسباب وجيهة جداً. كما ان الطريق خطر.

ـ لكن تصرفاته تجاهك اثارت جنوني. فقد كان متأكداً من انك ستقدرين الموقف ولو انه اقترح ان تمضيا نهاية الاسبوع معاً. فاضطررت ان اثير غيرته لأرى ردود فعله. لقد خشيت عليك جداً. صدقيني يا الين فأنا لست كاذبة هذه المرة. وها أنذا قد ايقظت غيرته فقرر ان يلحق بك الى اردغور.

حدقت الين بقبضتها وهي تنظر الى جلدها الأبيض، لعل كاتريونا على حق ولو اني وضعت منظاراً جديداً لعرفت انه حقير وغيور.

ـ هل انت غاضبة مني يا الين؟ لقد اثرت غيرته، كي ادفعه ليطلب الزواج منك. فهل عقدت الأمر بينكما؟

ـ لا، لا... لا اريده ان يطلب الزواج مني (اردفت وكأنها تصك اسنانها) الآن أو في يوم من الأيام.

ـ وهل لأنني قلت انه يستخف بك؟ (سألتها كاتريونا

باضطراب):

ـ لا ابداً... دفنت وجهها بين راحتيها وهمست، يا الهي يا كاتريونا ليتني لم اذهب ابداً الى اردغور. ليتني لم اعد اليها... انني اشعر بالأسى.

سمعت الين صوت مفتاح المذياع وقد ادارته كاتريونا كما تناهى الى مسامعها صوت الأغطية التي ابعدتها كاتريونا عنها، ولحقت بها الى النافذة لتحيطها بذراعها بعطف.

ـ تتمنين لو انك لم تلتقي ثانية بدومينيك يا الين اليس كذلك؟ اعلم انك تحبينه بجنون منذ خمس سنوات، وما زلت تكنين له تلك العاطفة.

ـ لا اعلم (تمتمت الين بيأس) لا اعلم والله. يسرني البقاء بجانبه بطريقة او بأخرى، ولكن لا ادري ما الذي يشدني احياناً الى الوراء ويدفعني الى التراجع. آمل الا يعرف. حاولت اخفاء ذلك فلا احب ان يكتشف حقيقة مشاعري.

ـ ولماذا؟

ـ لأنه متزوج من ماريا وأنا لا استطيع...

فقاطعتها شقيقتها:

ـ لأنك تحبين ان يكون لك وحدك. من يدري فلربما طلقها.

ـ وكيف يقدم على ذلك، ألم تقولي ان حبهما جنوني؟

ـ وهل تظنين ان عواطف الناس كعواطفك لا تتبدل خلال خمس سنوات؟ ألم يأت دومينيك الى اسكوتلندة وحيداً؟ ألم يتجاهل وجودها ولم يذكر شيئاً عنها؟ تداعت الذكريات في مخيلة الين وهي تحدق بتناسق الوان الأزهار في السجادة وتذكرت أن دومينيك وعدها ان يفصح لها عن خبرته بالحب متى توطدت علاقتهما أكثر. ترى هل يريد أن يشرح لها كيف يتخلص من شراك حب وقع فيه؟

هزت رأسها يمنة ويسرة فها قد رحل، وعلاقتهما لم تزل في طور النمو.

- لقد فات الأوان، دمدمت بحزن، لقد اخبرته امي بأنني لا ارغب في رؤيته ثانية فولّى الأدبار.

- يا لك من غبية. كيف تسمحين لأمك بالتدخل في تصريف شؤون حياتك؟ ارى ان امك تسيطر عليك تماماً.

- لكنني مسرورة برحيله (اصرت الين محاولة ان تقنع نفسها بأن ما حصل لصالحها) انني متأثرة به عاطفياً ولن تلبث تلك العاطفة أن تذوي بعد مدة.

- ومن يدري؟ وكيف تتنبأين بذلك؟ استفسرت كاتريونا بسخرية.

- علي أن اقنع نفسي بذلك كي استطيع تجاوز الصدمة كالمرة الماضية.

- لكن الأمر مختلف الآن. فقد كنت فتاة ساذجة، وكان حباً عابراً.

- كفى يا كاتريونا رجاء فأنا لا ارغب في مناقشة الأمر اكثر من ذلك لقد انتهى الأمر (نظرت الى شقيقتها وتنفست بعمق) من الأفضل ان تلتزمي فراشك. متى سيزورك الطبيب؟

- غداً على ما اعتقد: قالت كاتريونا وهي تضطجع ثانية وتتكىء على الوسائد، وتتأمل غرفتها ذات الألوان الجميلة الزهرية والبيضاء.

- آمل ألاّ يطول بقائي في السرير فقد مللت اعتناء والدتك واهتمام أبي. لا اعلم كيف تعيشين معهم، ولا تستأجرين شقة خاصة بك، فتملكين بذلك حرية التصرف (ضحكت فجأة وقالت بسخرية) عندها لا تستطيع والدتك ان تخبر، دون موافقتك اي رجل تحضريه الى منزلك، بأنك لا ترغبين برؤيته ثانية من اجل مصلحتك العامة. اليس كذلك؟ يا الين انني جادة فيما اقول اذا اردت ان تتمتعي بحياتك، فنفذي اقتراحاتي.

- ربما فعلت، دمدمت الين...

أخذت خيوط الغسق ترتسم على صفحة السماء... وتلاشى ضوء الشمس داخل الغرفة. فأخذت الين تشغل نفسها بترتيب ملابسها وهي تشاهد مسرحية على التلفاز. لكن التفكير بدومينيك فاجأها بوابل من الأسئلة ترى لماذا تركته ولم تجلس معه في منزلها وتسأله عن ماريا؟ لماذا تركت والدتها تتدخل في شؤونها، لماذا؟

ولما أبى الكرى ان يداعب مقلتيها، لم تنعم بنوم هادىء واستيقظت في صباح اليوم التالي متعبة، وخرجت بلا افطار حيث ادّعت انها تأخرت. لقد ادركت تماماً ما قصدته كاتريونا عندما قالت لها: ان المرء يشعر احياناً بالحصار حيث يوليه الأهل المزيد من الاهتمام والحب، فلا يملك الحرية عندئذ، ولا يتصرف كما تمليه عليه ارادته فيكتسب خبرة من اخطائه. دون ان يقحم الأهل انوفهم في كل كبيرة وصغيرة.

وعند موقف السيارات العامة، دهشت الين من ذاتها الممزقة فلم تزل تعاني الأمرين بعد انقضاء عطلة نهاية الأسبوع الماضي، ومع هذا فها هي تتكلم مع الركاب وكأن شيئاً لم يكن، يتغزلون بجمال الربيع الهادىء الذي أتى عقب العاصفة.

كيف ستلتقي بزملائها في العمل، وتشرح لهم ما حدث لجورج؟ وتخطط عملها اليومي، ونفسها تئن حزناً وتتوق شوقاً لدومينيك؟ وحنينها اليه قد غدا ألماً مبرحاً لا شفاء منه.

ربما تجد في العمل دواء ناجعاً، وتخفف من حدة مصابها فعليها أن تستغرق كلية في عملها، وأن تغوص في دقائق القضايا وتعود لقضايا سابقة كي تشغل تفكيرها طوال ثماني ساعات كاملة، وقد يضطرها الأمر للاستمرار في طباعة رسائل كثيرة كي تحقق هدفها ذلك.

وما إن انتهت ساعات العمل حتى لفها الارهاق فشل تفكيرها.

وعندما غادرت المكتب قبل غروب الشمس التي سكبت اشعتها الرخيمة مظللة ابنية حي الريجنسي الأنيقة الحجرية وعكست ظلال تلك الأبنية على الطريق، نظرت الين من حولها وهي تأمل ان ترى

رجلاً طويلاً ذا شعر أسود خشن يرتدي سترة من جلد الماعز يتجه اليها. لكن شعوراً بخيبة الأمل اعتراها مسبباً لها المزيد من الارهاق حين لم يظهر دومينيك. فتابعت طريقها الى المستشفى.

وعندما دخلت غرفة جورج حياها ببرود، ثم وقع الرسائل وبعد ساعة غادرت الين المستشفى والسرور يغمرها اذ لم يتعرض جورج الا الى احاديث العمل. لكن والدتها فاجأتها بوابل من الأسئلة ما ان دخلت المنزل.

- لمَ تأخرت؟
- ذهبت لزيارة جورج ليوقع رسائل مهمة.

شعرت مارغري بالراحة فأجابت:

- بالطبع... وكيف صحته الآن؟
- تحسنت كثيراً.
- ألين. هل تحدث عن امور الزواج؟
- زواج؟ ماذا تقصدين؟
- اجل... الم اخبرك ان في نيته الزواج منك، ولهذا اقترح قضاء الاجازة معك؟
- لا لم يقل شيئاً بهذا الخصوص. انه ما زال يعاني من قدمه المكسورة.
- يجب ان توليه اهتمامك وعنايتك، فالرجال بحاجة الى العناية والدلال كالأطفال عندما يصابون بأذى. قدمي اليه قليلاً من الشوكولا أو الفاكهة أو كتاباً يسره مطالعته.واياك ان تذهبي اليه حاملة رسائل العمل لتوقيعها فقط.
- بالله عليك، كفى يا امي... أتوسل اليك. اجابت الين بعنف.
- وعمَّ اكف يا ابنتي؟
- كفي عن اسداء النصائح لي وتخطيط مستقبلي (نهضت الين دون ان تنهي طعامها) سأرى كاتريونا.

وقفت لبرهة في الظلام تحدق في اضواء الشارع البراقة، ومزيج من الانفعال يعتريها. فقد شعرت بالحزن اذ قست على والدتها وعارضتها لأول مرة في حياتها. كما غمرها الابتهاج اذ شعرت بارتفاع معنوياتها، وسمو روحها اذ قررت أن تشق طريقاً جديداً في حياتها. وأن تبحث عن شقة مستقلة، وستشجعها كاتريونا على ذلك. ثم تبحث عن عمل آخر في مكتب محام آخر. اذ لم تعد تتوسم خيراً في جورج.

لكنها اخذت تجرع مرارة الحزن ليلة بعد اخرى، وتستقبل ايام عمل مضطربة الى ان انتهى الاسبوع. اخذت ترى المدينة وهي تخلع سترتها الضبابية صباح كل يوم، آه كل شيء حولها يذكرها بالربيع... بربيع الحياة والحب حيث يجتمع المحبون. ولكن ترى ابن حبيبها؟ أو من توقعت أن تناديه (حبيبي) آه لقد رحل بعيدا ودون عودة.

وما أن اتى نهار الجمعة حتى بدأ الاعياء يلتهمها، ولكنها غدت مخدرة الشعور لا تشعر بما يعتريها. وقد قررت أن تبقى هكذا ولن تدع احداً بعد الآن يقلق مشاعرها كما فعل دومينيك.

وعدت ألين كاتريونا أن تلقاها في ردهة بناء مكتبها لتشاهدا معاً احدى شقق الايجار التي قرأت عنها في الصحيفة لهذا تركت المكتب الساعة الرابعة وهي تحمل حقيبة مليئة بالرسائل لتوقعها بعد ذلك من جورج. هبطت السلم فأزاغت اشعة الشمس الذهبية التي تسللت الى الردهة عينيها، ولم تميز ما ترى امامها بل لاح لها شبح طويل يقترب منها ليحجب اشعة الشمس وسمعته يهمس وهو يمسك بذراعها (ألي) فالتقت نظراتها بنظرات عينين واسعتين زرقاوين باهداب طويلة.

فتلعثمت:

- ماذا تفعل هنا؟ وغدا نبضها كصوت الرعد يخترق مسامعها، وارتجفت ساقاها فلم تقو على الوقوف، ومن حسن حظها انه امسك

بها في تلك اللحظة بالذات.
- لقد اتيت كي اراك.
- اين كاتريونا؟ سألته بصراحة وهي تنظر حول الغرفة.
- لم تأت. اتيت بدلاً عنها. اذ اجتمعت بها في منزلكم اليوم فأخبرتني عن مقر عملك. وأنكما على اتفاق لمشاهدة احدى الشقق. فقررت ان آتي لأراها معك.
- لا يمكنني ان اذهب (اتجهت الين الى الباب محاولة ان تحرر يدها منه وهي تهمس لاهثة) يجب ان اذهب لزيارة جورج كي يوقع الرسائل ومضت باتجاه شارع البرينسيس.
- اذن سأقودك الى المستشفى. لقد اوقفت السيارة في الطرف الآخر ثم نرى الشقة وبعد ذلك نبحث عن مكان هادىء لنأكل ونتسامر.
- لا يا دومينيك -وقفت في عرض الرصيف متجمدة ووقف امامها فعرقلا مسير المشاة الذين اخذوا يتدافعون ليلحقوا بسيارة الأجرة الكبيرة قبل انطلاقها وهم يتفادون الاصطدام بهما.
ولكنه اجاب باصرار وفمه يفتر عن ابتسامة:
- بل سأقودك.
كان يرتدي طقماً من الجلد الأزرق الشاحب يمتاز بطراز ملابس الصيد. وقميصاً أسود وقد عقد على عنقه وتحت ياقة القميص منديلاً احمر غامق اللون. ولكن منظره بدا غريباً وذوقه رفيعاً في هذا الجو الذي يغص برجال الأعمال. غريباً حتى عن الاسكوتلنديين ما لم يطالع المرء في عينيه الزرقاوين زرقة مياه البحيرات الاسكوتلندية تتلألأ تحت شمسها الربيعية.
فأجابته وهي تحملق به وموجات الحب تهتف من اعماقها:
- لا تحاول لن اذهب مهما فعلت. وعادت لتهمس في اعماقها الدفينة:
- يا الهي ما أروع ان القاه ثانية وقد فقدت الأمل في ذلك،

لكنه سألها:
- ولماذا؟
- لأن كل شيء بيننا انتهى.
لكن نظرات العاطفة أبت ان ترضخ لأوامر العقل فلم يشح احدهما بنظره، بل راحت العيون تتسامر فرحة باللقاء وإن اصرت الين ان لا فائدة ترجى من هذا اللقاء العابر.
- وما الذي انتهى؟ سألها دومينيك.
- علاقتنا معاً.
- اني موافق... دعينا نلتمس الهدوء في مكان ما. ما رأيك ان نذهب الى اردغور (اجابها باندفاع) لنذهب الآن كي نصل في منتصف الليل الا اذا نفد الوقود ثانية.
- لكن اردغور لا تلائمك وأنت لا تحبها. ألم تخبر والدتي بذلك؟
- احبها عندما تكون معاً...
- لكني لا استطيع... لا... بينما...
لاحقتها نظرات المارة الفضولية فهرعت تسير على غير هدى وهي تصطدم بالأشخاص الذين مشوا في طريق معاكس.
سارع دومينيك الى جانبها ثانية، وشد الحقيبة من يدها وقال:
- إن السيارة في الطرف المقابل للساحة... تعالي نعبر الطريق بعد مرور تلك الشاحنة.
- اعطني الحقيبة (قالت محاولة ان تحرر كوعها من قبضته).
- لن اعطيك اياها مهما فعلت... تعالي معي... يجب ان تبقي معي طوال احتفاظي بها. اطبق قبضته على كوعها ثم قال وهو يركض... اركضي خلفي، ان اردت استرجاعها.
ركضا عبر الساحة المظللة متجاهلين عبور السيارات. فتح دومينيك باب السيارة فانزلقت الين الى داخلها.
وبلمح البصر جلس في كرسيه الى جانبها فنظرت اليه لتدله على الطريق. لكن تلك المعلومات غابت في طي النسيان اذ دمدم كلمات

بالبرتغالية، وأمسك بكتفها وسحبها اليه وعانقها بعنف. تسمرت في مكانها تحت تأثير عناقه المدهش. وعندما حاول الالتصاق بها وازداد عنفاً، دفعته بعيداً عنها وهي تستند بظهرها الى باب السيارة وتغطي فمها بيدها وصوتها يرتجف.

ـ ليس لك حق ان تهاجمني هكذا وفي مكان عام يغص بالمارة.

وتحت وطأة نظراته الغاضبة المفعمة بالعواطف، تنفس بصعوبة وانحنى الى الأمام، وداعب وجنتها بأنامله ثم همس:

ـ يا الهي (وأخفى جبينه براحتيه، وأخذ يدعكه وكأنه يحاول أن يزيل اللأ حل به فجأة) ترى هل تتكلمين عن الحقوق لأنك تعملين مع محام.

سألها بجفاء وهو يخفض يده، وينظر اليها نظرة عداء جعلتها تلتصق بالباب. استقر في كرسيه جيداً محدقاً امامه وقال بصوت يرتجف قليلاً:

ـ آسف. اذا شعرت بأنني اهاجمك في وضح النهار. فأنا لا استطيع ان اضبط جوارحي في بعض الأحيان، فأتصرف تلقائياً، كما انني لست مثلك أو امثال اترابك هنا من الرجال أو النساء، فأنا لم اخلق من الجليد، ولا ابالي في الحقوق، وسأعانقك متى شئت ذلك.

تنفس ببطء وأدار المحرك، فأخذت السيارة تتهادى على الطريق ولكنه ما لبث ان تابع:

ـ لقد قضيت خمسة ايام تعسة بلياليها، وأنا احاول ان اقنع نفسي بأني استطيع العيش بدونك، وبامكاني الابتعاد عنك ولكن عبثاً. (اخشوشن صوته، وأردف) فهل هناك ما يدهش ان فقدت توازني عندما اراك؟ ادار مقود السيارة، وأخذت العجلات تهدر فوق الطريق المكتظة، لكن الين التي ذهلت من المفاجأة اخفت عينيها براحتيها، وأخفضت رأسها اذ شعرت ان السيارة ستصطدم باحدى السيارات الآتية من الجهة المعاكسة.

وعلى الرغم من ان الاصطدام لم يحدث، الا ان الين لم ترفع

رأسها اذ كانت تحاول ضبط عواطفها الجياشة التي زمجرت في داخلها، وأحاسيسها التي استيقظت بعودة دومينيك، وها قد عادت لتعنفها، فما زالت تجرح مشاعره.

٧- وانتصر الحب

زادت السيارة من سرعتها، ودفعت بألين الى الأمام مما اضطرها ان تبحث عن حزام الأمان. لكن يديها المرتعشتين، حالتا دون تثبيته الا بعد جهد. وعندما نظرت أمامها أدركت انهما ينطلقان الى الغرب من ادنبرة. فاعترضت قائلة وهي تنظر بسرعة الى دومينيك.

- هذا ليس طريق المستشفى. انعطف عند التقاطع الثاني لتعود ادراجك ماراً بالمدينة الى ميرسيشتون.

لم يجبها، بل تابع طريقه ببطء كي يفسح المجال لسيارة شاحنة اذ أزاغت الشمس المنخفضة المتلألئة نظره حيث انعكست على نافذة السيارة الأمامية.

فقال:

- هل لك ان تعطيني نظارتي من أمامك يا ألين؟
- اذا عدت أدراجك باتجاه المستشفى فلن تزعجك الشمس.

قالت وهي تخفض مظلة السيارة التي أمامها لتحمي عينيها من الشمس.

- لكنني لست ذاهباً الى المستشفى (أجابها ببرود) فلقد نال جورج نصيبه الوافر من اهتمامك، وقد أتى دوري الآن. إياك والهرب اذ ستلاقين حتفك لا محالة.

ثم ما لبث أن داس على مدوسة الوقود، فانطلقت السيارة مسرعة فوق طريق يلمع كصفحة الذهب اذ انتهى تقيد دومينيك بما تفرضه قوانين السير من التزام سرعة معينة. طلب دومينيك ثانية نظارته وهو يرجوها:

- أعطني النظارة كيلا أصطدم بما أمامي، أكاد لا أرى بوضوح يا ألين...

فتحت العلبة أمامها وناولته النظارة وما ان وضعها على عينيه حتى قاد بسرعة البرق.

وبعد لحظات أدركت ألين أنه لا يريد العودة فسألته:

- الى أين ستذهب؟
- الى أردغور طبعاً حيث نستمتع بالكلام والحب دون ان يزعجنا احد.
- لا... لا يمكن ان تفعل ذلك... إني لا... (أجابت بوضوح) أرجوك يا دومينيك دعني... عد أدراجك... لا تستطيع ان تخطفني بهذه الطريقة.
- ولم لا؟ (أجابها بجفاء) إياك ان تخبريني بأن ذلك لم يحدث في المرتفعات الاسكوتلندية من قبل... ألا تعلمين أن لوكينفار أتى من الغرب، خطف حبيبته ثم هربا ممتطين صهوة جواده.
- لم يختطفها فقد نسقا الأمر معاً لأنها كانت تنوي الهرب معه.
- وأنت! هل ترفضين؟ اسمعي يا ألي (قال ساخراً) واجهي

الحقيقة واعترفي بها فذلك خير لك.
- لقد واجهتها فعلاً.
أجابته ثائرة وهي ما زالت تفكر بالساعات المضنية التي أمضتها متمنية لقاءه الى ان صمدت في وجه عواطفها مقنعة نفسها بأنه رجل متزوج. جلبها الواقع من جديد فهمست:
- لقد فكرت بك في كل ليلة مضت.
- وأنا كذلك (أجابها بحيوية) ورفع يده عن المقود كي يمسك يدها التي وضعتها في حضنها.
- ظننت أنك رحلت بعيداً بعيداً ولن أراك ثانية. وخشيت ان تكون والدتي قد أقنعتك بألاّ نلتقي ثانية.
وبلا جواب نظر اليها ملياً وأشعة الشمس انعكست فوق وجهه، فبدت نظارته كقناع مطلي باللون الذهبي، أنيق صلب، يخفي معالم وجهه. لكن صمته أقلقها فسألته:
- وأين ذهبت آنذاك؟
- الى غلاسكو. لأتفقد عملاً هناك.
- ظننت أنك عدت الى البرازيل.
ومرة ثانية لم يجب، فقد استحوذ الطريق الذي أخذ بالازدحام اهتمامه، حيث اقتربا من احدى المدن. ولما وقفا تلبية لأوامر الاشارة الضوئية، سألها مستفسراً:
- ولماذا أعود الى البرازيل؟
- لتلحق بزوجتك... دمدمت بيأس ونظرت من النافذة تتأمل المباني التي انتشرت على جانبي الطريق.
- وهل تظنين أنك تضفين على الجو مرحاً بهذه الدعابة؟ (خطفت بصرها اليه لترى ملامحه قد اعترتها القسوة وفجأة أضاف): وهل تجدين في الأمر مدعاة للدعابة؟
- إنني لا أطلق نكتة. فكاتريونا أخبرتني كل ما لديها عن ماريا.
- وماذا قالت بالحرف؟

- إنّ حبكما متبادل، وترغبان بالزواج عندما تستقران في ريودي جانيرو.
وللمرة الثالثة لم يجبها، حيث أصبحت السيارة تتهادى وسط الطريق الرئيسية في المدينة، والتي غصت بالمحلات التجارية المغلقة وقت الغداء. وتناثرت منازل أخرى ثم ما لبثت منازل ريفية لكل منها حديقة صغيرة أن ظهرت، وبدأت ملامح الريف الى الغرب تشق معالمها بوضوح تلمع تحت أشعة الشمس. وما ان اطمأن دومينيك الى الطريق حتى تابع حديثه باهتمام:
- أهذا السبب تخشى والدتك لقاءنا وأصرت على ألاّ نلتقي نظراً للظروف الراهنة. لم أفهم قصدها اذ ذاك. ولعلي الآن أدرك ما عنت.
- أجل... (دمدمت ألين وهي تنظر من نافذة السيارة) رجاء لا تتابع طريقك وعد أدراجك الى ادنبرة. يجب ان يوقع جورج تلك الرسائل.
لم يعر توسلاتها اهتماماً. بل قاد بسرعة أكبر حيث أخذت أشعة الشمس تجر أذيالها متيحة لقوس ضبابي برتقالي اللون ان يتربع في قمة السماء الزرقاء الشاحبة، ما لبث أن انزلق تدريجياً ليختفي وراء سلسلة جبال ظللتها خيوط الغسق. لكن دومينيك هدم الصمت بلهجة مثيرة:
- هل زرت جورج كثيراً هذا الأسبوع؟
- كل يوم.
- وهل طلب الزواج منك؟
- لا.. لم يفعل. كنا نتكلم معظم الوقت عن العمل.
- لكن والدتك أخبرتني عن عزم جورج لخطبتك، وأنها على يقين من موافقتك (مضى في طريقه غير آبه لرغبتها وتابع) انها تريد ان تبعدني عنك. لا يا ألي... فلن أتيح لجورج جولة ثانية اذ خسر الجولة الأولى. ولهذا لن تزوريه هذا المساء. وأرسلي الرسائل

بالبريد، ومن الآن فصاعداً، ستعملين معي وليس معه.

ـ أعمل معك... سألته بدهشة...

ـ نعم لقد أخبرتك أنني بحاجة الى سكرتيرة. لا تقلقي سأدفع لك مرتباً، وستعيشين معي في أردغور.

ـ ولكن بما أنك تعرف...

ـ وما الذي أعرفه...

انبرت ألين للاجابة بسرعة...

ـ لعلك تقدر شعوري تجاهك وأنت رجل متزوج. لهذا يجب ان تقدر ظروفي فأنا لا أستطيع العيش أو العمل معك.

اختفى قرص الشمس تماماً خلف الجبال القريبة، وغدت السماء زرقاء ذهبية مموجة بخيوط من غيوم الغسق البرتقالية. وفقد الطريق تألقه، فخلع دومينيك نظارته ووضعها الى جانبه ورماها بطرف عينيه بنظرات فضولية:

ـ لا أفهم ما تقولين! وهل تعنين ان زواجي هو العائق الوحيد الذي يحول دون موافقتك على ان نبقى معاً؟

تنهدت بألم وقالت:

ـ أجل هذا هو العائق كما انني لا أريد أن أكون سبباً في تشويه علاقة زوجية. لا أستطيع يا دومينيك ان أبرر موقفي أكثر من ذلك. فاذا كنت فعلاً تكنّ لي عاطفة مهما كان نوعها، فعد بي الى ادنبرة رجاء.

ـ اذا كان هذا هو رأيك؟ فان عاطفتي تجاهك لن تسمح لي ان أعيدك الى هناك والى رئيسك جورج، ولا الى امك المسيطرة أو شقيقتك، كان علي ألاّ أسمح لك بمغادرة القلعة، وأن أحبسك هناك حتى تقتنعي بالبقاء معي. لهذا سنذهب الآن كي نتدارس الأمر دون تدخل أحد من أولئك.

ـ لكن... لكن... أين ماريا زوجتك؟ رجاء إنظر الى الموضوع من وجهة نظري أنا. لقد خدعتني اذ لم تحدثني عنها، ولا أستطيع

العيش مع شخص خدعني، حتى ولو كانت علاقتنا عابرة، لفضلت ان تبنى على ضريح الصراحة. فكيف أثق بك بعد ذلك؟

نظر إليها وقد نفد صبره وأخذ يقسم ويدمدم. ثم وضع رجله على فرملة السيارة فتهادت السيارة ببطء الى طرف الشارع حيث أطفأ المحرك وشد فرملة اليد. ثم أدار نفسه اليها وجذبها من كتفيها وانحنى بالقرب منها حتى شعرت بالوعيد والتهديد يتطاير من عينيه وقال من بين أسنانه المصطكة:

ـ اسمعي جيداً... لم أخدعك عمداً كما قلت.

ـ اذن لم أخفيت عني أمر ماريا؟

ـ أوتريدين اخبارك بشيء عابر مر في حياتي؟

ـ لثقتك بأنني لن أنفذ ما تريد اذا عرفت عما جرى بينكما.

ـ لا ليس ذلك هو السبب (أنكر ذلك مما جعلها ترتجف قليلاً) سأخبرك عن ماريا عندما تتوطد علاقتنا يا ألي. بالله عليك لا تدعي ذاك الأمر يفسد علاقتنا.

حلق أحدهما بالآخر وشحن جو السيارة بالعداء، وتدفقت المرارة في أعماقها مما دفعها الى القول:

ـ اذن ستخبرني عن ماريا بعد ان اغدو رفيقتك، وحينئذ سترفض الزواج مني لأنك مضطر أن تعود الى زوجتك في البرازيل أليس كذلك؟

صرخ دومينيك وهو يهزها بعنف:

ـ انني لست بمتزوج، وليست زوجتي في البرازيل أو سواها من العالم.

ـ لست متزوجاً! (فغرت فاها مندهشة، ودفعت بشعرها الذي تدلى على جبينها بتأثير هزته) انك تخفي الحقيقة. فقد قالت كاتريونا انك ذهبت الى ريو كي تتزوج. كما علمت أمي بذلك فأخبرت زوجها. فكيف تدعي ان لا زوجة لك؟

اصطكت أسنانه غضباً وأقسم لها ثانية. وتركها ليستقر في كرسيه. وأراح رأسه الى مسند الكرسي، ثم أغمض عينيه وكأنه يحاول ان يتخلص من شعور يرهقه. بدا وجهه شاحباً، وارتسمت خطوط سوداء تحت عينيه لتؤكد لها ان كليهما نهلا من مرارة الحزن في تلك الليالي الماضية.

ثم فتح عينيه وبحزن مرير أجابها:

ـ لقد عدت الى البرازيل منذ خمس سنوات لأتزوج ماريا لكن الزواج لم يتم. صدقيني وثقي بأن هذه هي الحقيقة بأم عينها (ارتجفت آلين وهو يتابع) ثقي بي يا آلي. فالثقة محور تفاهمنا وقد طالبت أنتِ بها، وسأحدثك بالتفصيل بعد قليل عن ماريا.

زمجرت السيارة من جديد معلنة عن انطلاقها، وداعبت الموسيقى الهادئة الصادرة عن آلة التسجيل مسامعها، وما لبث دومينيك ان زاد من سرعة السيارة فلم تستطع آلين رؤية الأغصان العارية الشائكة وجذوع الاشجار الضخمة، والمنازل المصطفة على جانبي الطريق بوضوح.

استرخت آلين في كرسيها، وهي تحدق عبثاً بما أمامها، وافكارها تتلاطم معلنة ان ليس في اليد حيلة، ولا ثمرة تجنى من جدلها مع دومينيك، اذ قرر ان يفعل كما فعل لوكينفار سابقاً عندما اتفق مع حبيبته على الهرب. ولكن أما يختلف دومينيك عنه؟ نعم! أراد ان يطير بها دون ان يأبه لما يلائمها.

وعادت تستجمع أفكارها من جديد هل تثق به؟ وهل هو جدير بثقتها؟ تود في اعماقها لو تصدق بأنه ليس متزوجاً لأن ذلك يغير مجرى حياتها، وسيحررها من الشعور بالذنب تجاه زوجته.

لو تبلورت الأمور الآن، لأزاحت عبئاً عن كاهلها، ها هي تستطيع تلبية رغباته في البقاء الى جانبه والعمل معه في أردغور لمدة ستة أشهر، ولن يضيرها ذلك بل فيه تحقيق لرغبتها.

تابع دومينيك القيادة باتجاه ستيرلينغ وقد لفها الأصيل بألوانه

النرجسية فتمنت آلين ان يتوقفا قليلاً. لكن دومينيك تابع مسيره، وعندما وصلا فوق جسر آلان بدت أنوار المنازل والشوارع البراقة كأزهار ربيعية بيضاء وصفراء متناثرة، وأخذ الغسق يحيط بالهضاب وهو ينشر عباءته السوداء متابعاً زحفه شمالاً.

ـ هل لنا ان نتوقف قليلاً هنا؟ علي ان اطمئن والدتي كيلا تجزع لتأخري.

ـ ستخبرها كاتريونا بأنك معي، وعندما يطول انتظارها، ستفقد الأمل، وستعلم انك هربت معي. وسرعان ما زاد في سرعته ليعبر الجسر، وأضاء مصابيح السيارة الأمامية التي انعكست أنوارها في صفحة الغسق.

ـ هل قلت أنني هربت؟

ـ نعم! أي هربت مع رفيقك.

ـ لأنك اختطفتني.

ـ وهل ستشهرين هذا كالسيف في وجهي دائماً؟ (مدّ يده لتمسك بيدها مؤكدة حبه لها) لقد فعلت ذلك كي أخلصك من مقاومتك الغبية. لن نتوقف حتى نصل الى فورت ويليام الساعة التاسعة. اذ ان الطقس جميل، والطرقات جافة وخالية وسنبيت في ذاك الفندق الذي رفضت أن تمضي به ليلة السبت الماضي، ثم نتابع الى أردغور صباح اليوم التالي.

ـ لن اقضي ليلتي معك... (دمدمت لتدافع عن نفسها) ولن ترغمني على ذلك وسأكرهك ان فعلت!

وجاءها صوته بارداً مؤنباً:

ـ لا أرغم أية امرأة كانت بأن تنضم الي. لكننا سنأخذ غرفة واحدة وربما تشاركنا في سرير واحد، كما فعلنا عند السيدة جانيت، لئلا تغيبي عن ناظري، ولأضمن وجودك معي في أردغور.

بدأت الجبال تختفي كلية اذ سيطر الظلام الدامس على الطبيعة، واخذ ضوء خافت يلمع عن بعد بين الحين والآخر ليؤكد وجود بيت

أحد الرعاة المتناثرة هنا وهناك فوق الهضاب.

أخذ محرك السيارة يهدر برتابة فتذكرت ألين شعراً شعبياً كتبه السير ولتر سكوت عن لوكينفار، فأخذت تردده وتعيده في ذاكرتها. لقد تعلمته في المدرسة وألقته أمام زميلاتها، ولكن لم يخطر في ذهنها يوماً ان تلك القصيدة ستمثل واقعها:

همسة في أذنها
ولمسة على يدها
وجواد عند بابها
وكالريشة دفعها
وامتطى الصهوة خلفها
وهربا معاً وانتصر حبها
وهتف لوكينفار
اننا معاً
نجوب السهول والبساتين
سينطلقوا خلفنا
فوق الجياد المسرعة

لكن عائلة ألين لن تطاردهما فوق صهوات الجياد، بل سيتعقبها قلق أمها واضطرابها، ليقض مضجعها.

أغلقت عينيها وتريح رأسها، فقد شعرت باعياء تام يزحف إليها بعد عودة دومينيك وبعد مضي تلك الليالي التي أرقتها. فألقت برأسها فوق كتف دومينيك واقتربت منه وهي تتنهد. لا لن تستطيع مقاومته أكثر من ذلك، بل سترضخ لعواطفها.

وصلا الى فورت ويليام حوالى الساعة التاسعة مساء، واتجها نحو الفندق القديم الذي يتوسط الشارع الرئيسي للمدينة، وقفت والنعاس يغلبها والرعشة تسري في أوصالها، بينما أخذ دومينيك يقوم بالترتيبات اللازمة. خلا مطعم الفندق من الناس اذ ان الوقت متأخر، ومواعيد تقديم الوجبات قد انتهت. ولكن دومينيك بلباقته

المعهودة، استطاع ان يقنع المسؤول بتقديم وجبة لهما. فجلسا الى المائدة نفسها التي تناولا عليها طعامهما ليلة السبت الماضي، ولشد ما أدهش دومينيك قول ألين:

- علي الاتصال بوالدتي متى انتهينا من العشاء.
- لا ليس الآن.
- لكن القلق سيقضي عليها (وأردفت هازئة) يبدو انك تهتم كثيراً بمشاعر الآخرين!
- لا يهمني أمرها على الاطلاق (أجابها ببرود) لقد حالت بيننا، ولن أدعها تفعل ذلك ثانية، ولن تكلميها قبل ان نخطط لحياتنا معاً.

فاحتدت ألين وأجابته بارتباك:

- وما نوع التخطيط؟ لا أفهم ما تقصد؟

وبدلاً من أن يجيب على أسئلتها، سلل يده في جيبه، وأخرج مغلفاً وقذفه إليها قائلاً:

- افتحيه واقرأي مضمونه.

وندت عن ألين شهقة عالية وهي ترى بين حنايا المغلف وثيقة هامة، أنها وثيقة زواج... نظرت اليه والسرور يغمرها. بينما تلألأت نظراته تحت الأضواء الخافتة.

- اجل اذا كنت توافقين على الزواج. وهذا ما شغلني الاسبوع الماضي فهل تقبلين بي زوجاً يا ألي؟ لننهي المعاملة هنا صباح الغد.
- وهل تستطيع ذلك؟
- بامكاننا انهاء الاجراءات كلها اذا وافقت أنت، فالمعاملة منتهية لكنني أنتظر جوابك.

تمنت لو ان الاضواء اقوى مما هي عليه لترى تعابيره، ولتقرأ ما يجول بافكاره، لكن بسمته الساحرة التي تراقصت على شفتيه أزعجت ألين فسألته بحذر وهي تطوي الوثيقة بأطراف أصابعها.

- ولماذا تريد الزواج مني؟
وسرعان ما شعرت بتوتر الجو بينهما وكأنه شحن بتيار كهربائي.
- لاحساسي بأنك قد تنفذين ما أطلبه منك، انحنى وهمس لها مفسراً عما يريد فعلقت قائلة:
- أهو السبب الوحيد؟
فأجابها بصوت متكاسل ومشجع:
- ألا يكفي؟
- لا... لا... (صدرت عنها همسة تدل على ارتباكها، وأخفت وجنتيها براحتيها بعدما حدقت بالوثيقة) لن أتزوج لمدة قصيرة...
- ماذا تعنين بالله عليك؟
- لقد اخبرتني أنك ستمكث في أردغور ستة أشهر كي تحصل على المعاش السنوي من وصية عمك (أشاحت بنظرها عنه، وأسندت رأسها براحتيها وتابعت) وأنا لا أحب ان أكون زوجتك أو زوجة غيرك لمدة قصيرة. أريد أن أبقى زوجة من أحب والى الأبد.

أخذ الورقة من أمامها، وسمعت حفيفها وهو يضعها داخل المغلف، وانتصب واقفاً، وأعطاها مفتاح الحجرة قائلاً:
- اذهبي للنوم. يبدو أنك متعبة، وسأخرج لأتأكد من أنني أقفلت باب السيارة.

غادر المطعم، وبقيت هي في مكانها وهي لا تصدق بأنه قد طلب الزواج فعلاً وأنها رفضت ذلك؟ ترى لم رفضت ذلك؟ انها تحبه، وقد قررت الاستقلال بحياتها والعيش معه، فلماذا لا تغتنم هذه الفرصة المفاجئة التي تكسب علاقتها صفة شرعية ولو كان ذلك مؤقتاً؟

نهضت وقد أمسكت بالمفتاح، وهرعت الى الردهة حيث أخذت معطفها، واتجهت نحو الباب الدوار الذي ما زال يبدو متحركاً ومشيراً أن أحداً قد خرج للتو فخرجت ووقفت على الرصيف.

داعبت نسمات الهواء وجنتيها، وعكست أضواء النجوم بريقاً على أسطحة المنازل المقابلة. وعندما نظرت الى الشارع المظلم لم تجد أثراً لسيارة دومينيك. آه لقد رحل ثانية عائداً بمفرده الى اردغور قبل ان يعلم انها ترغب به زوجاً.

ترقرقت الدموع حزينة في مآقيها، ولكنها ما لبثت ان عادت الى الفندق. صعدت السلم، ومشت عبر ممر ذي انارة خافتة، الى غرفتها البسيطة الباردة ذات السريرين. خلعت ملابسها وأخذت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً نادمة على سوء تصرفها، ثم ما لبثت ان اندست في الفراش ترتجف برداً، وكأن السريرين يهزآن منها لأنها وحدها وتعاني من عذاب أليم. لا لن تبكي وستدفع الثمن باهظاً. ها قد رحل دومينيك بناء على رغبتها وبلا مناقشة. لقد مل الجدل وحسماً للمناقشة أحضر وثيقة الزواج لكنها أخطأت اذ رفضته فانسحب دون اعتراض.

ليته عبّر عن أمنيته بالزواج منها بطريقة أخرى، ليته قال انه يحبها ويتمنى ان يحيا معها الى الأبد. ترى أما زال يحب ماريا التي لم تكن زوجته في يوم من الأيام يا إلهي ليتني أعلم بما حل بها!

عذبها الألم وأدمى عينيها الصراع فلم تنم جيداً، بل كانت تستيقظ بين الفينة والأخرى، وهي تشعر بالبرد. لكن الحلم عانقها وطار بها بعيداً الى الغابات الكثيفة علها تجد حبيبها دومينيك ولكن تراءى لها وكأنما رأت أمها وشقيقتها والضباب يلفهما. وسرعان ما حملها الحلم ثانية على أجنحته لترى حبيبها وتهتف دومينيك، دومينيك، لكن صورته غابت عن ناظريها واستمرت هاتفة باسمه.

وجاءها صوته مداعباً مسامعها، وأنفاسه تقترب منها، يعانقها ويضمها، تنهدت قليلاً واستسلمت الى الدفء اذ مسح شعرها بيده الناعمة وهمس:
- انني هنا معك يا آلي...

دمدمت وما زال الحلم يعانقها:

ـ اذن أين كنت؟

وفتحت عينيها وأنفاس دومينيك الدافئة تعانق وجنتيها، ها قد طار الحلم بعيداً، ورمى بها ثانية بين ذراعي دومينيك، مضطجعاً الى جانبها.

ـ أين كنت يا دومينيك؟

ـ ذهبت لأضع السيارة في مكان وقوف السيارات الخاص بالفندق وعندما عدت كنت مستغرقة في نوم جميل. دفع شعرها بلطف من على اذنها وقد أيقظت لمساته إحساساً انصب على معدتها وهمس:

ـ اللعنة. لقد كان حلمك مريعاً كما يبدو. . .

وانهارت الحواجز بينها عند إحساسها بهذا اللطف والهدوء وهو بالقرب منها. لقد ناداها إحساسها (ها أنت الآن مع دومينيك الرائع الذي بت تحلمين به زمناً).

ـ لا لم يكن ذاك حلماً فقط (صرخت وهي تدفن رأسها بصدره، وتستنشق رائحته العطرة، وتسمع خفقات قلبه المضطربة) لقد ظننت انك رحلت بعيداً. . . اذ لحقت بك لأخبرك اني لا أعني ما قلته في المطعم، لكنني لم أعثر عليك ولم أجد السيارة في مكانها. فظننت انك غادرت الى أردغور، وتركتني فريسة أوهامي لأنني رفضت الزواج بك. سأتزوجك يا دومينيك وسأفعل ما تريد لأنني احبك، وسأغدو كالشمعة التي تحترق ان ابتعدت عني ثانية.

حقق انسجامها ما حلمت به ألين منذ سنين، ونهلا من خضم حبهما دون تفكير بأي عائق يحول دون استمرار حياتهما معاً. رفع دومينيك رأسه وقال:

ـ انني مسرور ان الجليد قد انصهر أخيراً. لقد ظننت ان الربيع لن يأتي ابداً.

وبدأت اشراقة الربيع في علاقتهما تأخذ مجراها الطبيعي، لكن

قرعاً حاداً على الباب أخمد تلك الاشراقة لحظة، وأذهلهما، فتمطط بسكون ليسمعا سيدة تقول:

ـ ان الساعة تشير الى الثامنة صباحاً، ولقد طلبت ايقاظك في هذه الساعة. هاك الشاي خلف الباب.

تنفس دومينيك بعمق وقال:

ـ اشكرك.

نظرت اليه ألين ثم اخذت تعانقه لكنه قال:

ـ من الأفضل ان نسرع الى القلعة اذ لا نسمع قرع الباب في غرفة النوم العليا، وسنكون وحدنا. أما زلتِ موافقة على زواجنا.

ـ أجل. . . (وكان قلقاً ما ساورها).

فتحداها بسؤاله:

ـ حتى ولو لم يدم زواجنا أكثر من ستة أشهر.

حلقت بوجهه وبدا عليها الانزعاج لأنه لم يتغير على الرغم من انها اعترفت له بحبها. هل سيحاول ايلامها دائماً وبالطريقة نفسها. ألا تستطيع ان تضمن معه علاقة أفضل؟

ـ أجل (قالت مستسلمة لعواطفها) سأكون معك ولو دامت علاقتنا هذا الربيع والصيف المقبل فقط.

نظر اليها بعمق وهو يلمس وجهها برقة.

ـ اذن سنسجل زواجنا رسمياً هذا اليوم يا ألي. وسننفذ رغبة السماء ولن يفرقنا من في الأرض حتى يفرقنا من في السماء.

كان المسؤول عن تسجيل وثائق الزواج الذي اتصل به دومينيك خلال الأسبوع الماضي ينتظرهما. وقد أقام لهما احتفالاً بسيطاً. خرجا بعده الى الشوارع المكتظة المشمسة للميناء الداخلي لبحيرة لينهي وتمشيا فوق جسر بين نيفيس ثم عادا للفندق. وما ان وصلا الى بهو الفندق حتى سارعت ألين الى الهاتف.

وجاءها صوت والدتها صاخباً ممزقاً المسافات الطوال:

ـ أين أنت يا ألين؟

- في فورت ويليام لقد سجل زواجي من دومينيك للتو يا أمي.

ساد صمت خفيف، تبعه تنهد والدتها عبر الأسلاك وبصوت ضعيف سألت:

- وكيف تم ذلك وهو رجل تزوج من قبل؟

- لا... لا... انه ليس متزوجا.

- لكنه أخبرني وزوجي انه عاد الى البرازيل كي يتزوج من ماريا.

- أعلم يا أمي. لكن الزواج لم يتم، لأن مكروها أصاب ماريا (كم تمنت لو تعلم هي نفسها ماذا أصابها لأقنعت والدتها بذلك)

- وماذا حصل؟ وهل طلقته ماريا؟ أو طلقها هو؟

- لا يا أمي. افهميني رجاء. لا لم يتم زواجه من ماريا وكل شيء على ما يرام الآن. لم نرتكب إثما، وسنذهب لنستقر في قلعته في أردغور ثم سأكتب لك من هناك.

- ألين انتظري وماذا عن عملك؟ وعن جورج؟ عليك ألا تتنازلي عن طموحك لأن دومينيك يريدك أن تعيشي معه في عزلته هناك، وهذا ما يثير الضحك في هذا الزمن وأنت في مقتبل العمر بعد.

- انني جادة في الأمر يا أمي. وأستطيع العيش معه في عزلته وإن بدا لك هذا مضحكاً، وسأنفذ ما أريد فخذي هذا بعين الاعتبار. سأقدم استقالتي الى جورج فلا تقلقي، لك حبي وبلغي تحياتي لزوجك والى اللقاء...

التقت بدومينيك في الردهة، فنظر اليها بعينين فضوليتين، ولكنهما لم يتكلما بل تابعا طريقهما خارج الفندق متجهين الى السيارة.

وبسرعة شقت السيارة طريقها شمالاً حيث اخذت المدينة تختفي. وبدأت الجبال بقممها المتشحة بالثلج تلمع تحت اشعة الشمس الشاحبة وتموجت السماء الزرقاء بقطع الغيوم البيضاء المتناثرة. وتخللت الغابات الصنوبرية الخضراء نباتات البتولا الفضية التي اختلطت بنباتات العسيل الصفراء. وترقرق ماء النهر الممزوج بدموع الثلج فأومضت ببريق جميل عندما أخذت تصطدم بالصخور

الكبيرة، وتداخلت الهضاب بالمرتفعات البنية المنحدرة خلف بحيرة زرقاء أحاط بها شاطىء رملي بني فاتح اللون امتد بين بعض الغابات الكثيفة الزمردية حيث لاح احد البيوت بلونه الأبيض.

نظر دومينيك اليها وقال مستفسراً:

- وماذا قالت والدتك؟

- ابدت قلقها اذ خشيت ان اكون زوجتك الثانية.

لكن ألين شعرت بسرور كبير وكأن هذا الطقس يبشرها بحياة رغيدة في ظل دومينيك.

- آمل ان تكوني قد ازلت قلقها بهذا الشأن!

- تمنيت ذلك، ولكن الأمر ليس بهذه السهولة. اذ اني لا أعرف الكثير عن موضوع زواجك السابق.

استجمعت قواها وحاولت ان تبدو مصرة على معرفة التفاصيل وتابعت:

- ولماذا أخبرتها وزوجها أنك ذهبت الى البرازيل لتتزوج؟ لماذا لم تقل لي ذلك؟

- اخبرتها لأقنعها ان كاتريونا لم تثر انتباهي في ذلك الوقت، اذ اني كنت مرتبطاً بماريا، آملاً ان اصحح ذاك الانطباع السيء الذي طبعته كاتريونا في ذاكرتها، قبل ان ابدأ جولة جديدة معها (ضحك ضحكة عالية وأردف) لكن ذلك أساء اليّ اذ منعتني والدتك من لقائك ثانية.

- لقد منعتك والدتي من لقائي لأنها تحبني، ولا تريد أحداً ان يؤلمني.

- لقد فعلت ذلك لأنها هي المسيطر الأقوى على حياتك. حان الوقت ان تنطلقي من تحت جناحها.

- وهل انتقل من جناحها لأختبىء تحت جناحك؟ ولتدير أنت دفة حياتي؟

- شيء من هذا القبيل فأنا أهوى السيطرة على الآخرين، لكنني

أريد ان نتفاهم معاً.

- اذن ستخبرني عن ماريا؟ لا بد ان اعلم بالقصة كلها. لا استطيع انجاز اي شيء دون ان أعلم. اذ انها ستحول دون انسجامنا تماماً كما فعلت أمي وكاتريونا.

صفعها بنظرة من عينيه وتقلصت عضلات وجهه وقال:

- يبدو أنك تغارين منها.

- ربما. وقد تزول مخاوفي عندما أعلم الحقيقة.

التزم الصمت وتابع قيادة السيارة. لكن صمته اربكها، حتى شعرت بأن حاجزاً جديداً انتصب بينهما، نبع من أعماقه ليتركه مع أفكاره بعيداً عنها، وأحست بأن معنوياتها تهوي الى الحضيض بعدما سمت ذاك السمو الرائع منذ لحظات. هل يعني صمته انه ما زال يحب ماريا؟ وأن زواجه الحالي عبارة عن تعويض ما؟

أوقف دومينيك السيارة وفتح النافذة. لم يشب الصمت الا تلاطم الماء على الشاطىء وصدى همسات النسيم. همس دومينيك قائلاً:

- هل ترغبين ان نتمشى على شاطىء البحيرة؟ وبامكاننا ان نمشي بين الأشجار.

- حسناً.

كان النسيم بارداً ومنعشاً ورقيقاً يداعب وجهها.

أخذت ألين تمتع نظرها بالطيور الرشيقة ذات الألوان الصفراء والزرقاء وهي تحوم حول اعشاشها، وتتأرجح بخفة على اغصان الاشجار.

سرت ألين انها انتعلت حذاء عالي الساق اذ كان الطريق موحلاً ورطباً. لكن جمال الطبيعة الأخاذ كان جديراً بتحمل المشاق، اذ صفا الجو وراقت مياه البحيرة فاستطاعا ان يميزا الصخور في قاع البحيرة الخضراء الشاحبة. ثم تابع دومينيك حديثه بصوت ملؤه الحزن.

- لقد ماتت ماريا.

صدمتها الكلمة ونظرت اليه وهو يحملق في ماء البحيرة، وقد

أودع راحتيه في جيبه.

فسألته بصوت أبح:

- ومتى حدث ذلك؟

- منذ ثلاث سنوات.

لم ينظر اليها لكنها ادركت ان ماريا قد توفيت عندما ذهب ليقتفي آثار والديه.

- وما سبب الوفاة؟

- حسناً يا ألي. لقد ماتت متأثرة بمرض اللوكيميا. أعتقد انك سمعت بهذا المرض. انه مرض عضال لا يعلم الانسان باصابته الا بعد ان يسبق السيف العزل.

- أجل لقد سمعت به فقد أصيبت فتاة به في مدرستنا.

- بدت معالم المرض تظهر على ماريا عندما كانت في لندن بعد ان كانت شعلة نشاط وحيوية، بدأت تنام كثيراً اثناء النهار ولا تستطيع ان تنجز عملاً ما. ولما وصلنا الى ريو، زارت طبيب عائلتهم (توقف ثم أضاف بصوت خفيض) ثم أجلنا زواجنا، وبعد مدة الغي نهائياً.

- اذن لم تتزوجها؟

- وددت الزواج منها مع علمي بأنها لن تتماثل الى الشفاء، لكنها رفضت باصرار وكانت تعدني قائلة أنتظر كي اشفى، اذهب وعش حياتك يا دومينيك وانتظرني حتى اتحسن. ولهذا انتظرت ولكنها توفيت! (هزّ كتفيه) هذا كل ما في الأمر.

لكن ألين شعرت ان هذا الموجز ليس الا غطاء واضحاً لما يعانيه دومينيك من ألم وحزن، عندما توفيت حبيبته التي انتظرها طويلاً.

- اني آسفة، دمدمت وقد اغرورقت عيناها بالدموع، وأمسكت بيده مشفقة عليه.

- لا احب الشفقة يا ألين (امسك بكتفيها وتابع) كما أنني لا أريد أي رثاء منك.

- إذن انني أرثي ماريا (صرخت) لأنها لم تتزوجك أبداً. اعتقد ان

حبك العميق لها دفعك الى الانتظار طويلاً.

- أجل لقد احببتها (شعرت بالغيرة تنهش صدرها) لقد عرفتها منذ زمن طويل، كنا صديقين أكثر من كوننا عاشقين (رفع يده عن كتفها وقال) أحببتها لكن حبي لها لم يحمل المعنى نفسه الذي يحمله لك (وتابع برقة وقد شعرت بقشعريرة وارتجفت ركبتاها، وأخذت تلتقط أنفاسها تحت رقة نظراته) لم أحبها كما أحبك الآن وسأحبك الى الأبد.

- هل تحبني؟ قالت مستفسرة.

- لقد اخبرتك يا ألي اني احبك بطرق مختلفة: قلت لك ان كل خلية من جسمي تشعر بالحاجة اليك، حاولت ان اشعرك اني اخاف عليك، وأريد ان احبك، وان أوفر لك الراحة على الرغم مما قلته لي. الا يعني هذا اني أحبك ومن الأعماق. ومنذ يوم الجمعة الماضي وأنا أحاول اقناعك باخلاصي. لقد تزوجتك لأنني أحبك. فبالله عليك قولي انك مقتنعة بحبي.

امتزج صوته بحنين العواطف، وأخذ يمسح شعرها فقالت:

- اريد الاقتناع بحبك يا دومينيك (لمست وجنته بأناملها) لكن حبك اتى مفاجئاً لي، فلم استطع ان أتيقن منه بعد الذي حصل بيننا منذ خمس سنوات.

اخذ وجهها بين راحتيه، ونظر بعمق في عينيها لم تتألق عيناه بالحب في تلك اللحظة، بل لاح ألم واضح وقال برقة:

- لقد أغريتني بحبك منذ خمس سنوات. لكنني لن أبدأ حياتنا الزوجية بالكذب فأقول لم أنسك منذ ذاك اللقاء. لا يا ألي نسيتك او بالأحرى لقد احتفظت بذكراك في مخيلتي حيث لم تؤثر بي هكذا امرأة اخرى. شعرت بانك انسانة متميزة وأستطيع أن أحبك لو سمحت لي الظروف، ولو لم أعاهد ماريا (تقلص جانب فمه) الا انك اتهمتني بأنني خذلتك. ولم اشأ ان استغلك، لهذا تصرفت بقسوة لأني اخاف عليك حتى من نفسي هل فهمت الآن؟

- أعتقد... وتدفقت موجات السعادة في أعماقها، وأخذت تحوم في طيات نفسها كما يتحلق النحل ليستنشق عبير الازهار في يوم ربيعي مشمس.

ثم تابع:

- ظننت أني لن أراك ثانية. وما ان رأيتك مصادفة حتى تدفق ذاك الشعور القديم الذي احتفظت به منذ خمس سنوات في أعماقي، ولم أستطع هذه المرة ان اقاوم اغراءك. وأحسست بحبك القوي وبأن شيئاً لن يحول بيننا حتى انت يا عزيزتي ومهما حاولت.

- لا كنت أخشى (دمدمت وهي تطوق عنقه بذراعيها قائلة:

- ان حبي لك عنيف انه يؤلمني في بعض الأحيان.

- اذن لقد شعرت الآن بشعوري: لن نستطيع البقاء هنا، فلنذهب الى أردغور.

- لكننا لن نتمكن من اجتياز الممر لأن المد سيغمر الطريق. إذ كان الماء منخفضاً حوالى العاشرة صباحاً ولن ينحسر ثانية الا الساعة العاشرة والنصف ليلاً. واعتقد أننا سنصل حوالى التاسعة والنصف.

امسك دومينيك بيدها وسحبها خلفه وهما يهبطان طريقاً منحدراً حيث زحفت أغصان التوت البري لتتعلق بثيابها وقال:

- لم أفكر بهذا (نظر الى الهضاب المغطاة بأعواد الخلنج القاسية، ثم عاود النظر اليها وضحك بخبث) ليت الخلنج طرياً الآن لاستلقينا في رحابه. فقالت:

- سنعود اليه في شهر آب (وعدته بخجل، وتابعت) لكنني الآن اريد أن نصل الى بيتنا في القلعة.

- بيتنا! (ردد الكلمة وهو يجذبها اليه بعينين مرتبكتين) هل هذا ما تعنيه لك القلعة الآن؟

- سيكون بيتي معك دائماً وأبداً أينما كنت، وأن حللت يا حبيبي.

ضمها اليه ووقفا وقفة شاعرية تلفهما الشمس بأشعة ذهبية، بينما

راحت العصافير تزقزق فرحة وهي تقفز الى اعشاشها. وبعد لحظات ابتعد دومينيك عنها وسحبها خلفه وهما يتابعان هبوط المنحدر قائلا:

- تعالي لن أنتظر أكثر! تعالي قد نلحق بأنغوس في طريق جولته لتفقد شباكه. اذ يستطيع ان ينقلنا بقاربه الى منزلنا.

انطلقت السيارة متهادية فوق الطريق الملتوية تتأرجح تارة فوق هذا الطريق وتتمايل أخرى فوق ذاك، وكأنها عصفور يغرد فرحاً وهو يتجه الى عشه. داعب الفرح ذاكرة ألين فأخذت تغني الأسطر الأخيرة من قصيدة الشاعر سكوت فقالت:

وطاردوهما وسبقوا الرياح
لكن العروس اختفت
فهل تعرفون لوكينفار يا ترى
جريء في حبه
مقدام في حربه

وما ان انهت آخر كلمة حتى بدأت ملامح أردغور بمنازلها ذات الأسطح البيضاء تتناثر امامها. فأخذت تحلم بحياتها معاً. وسكبت الشمس ضياءها وامتدت مياه البحيرة الفضية الزرقاء المتلألئة التي أخذت تتدفق غرباً، وكأنها تسرع لتلتحق بمياه البحر.

- انظري! (هتف دومينيك) ما زال قارب انغوس واقفاً.

نظر اليها وزهو الانتصار يملأ نبراته وخفف من سرعة السيارة كي يدخل الشارع الرئيسي في المدينة.

- سنصبح في منزلنا سريعاً.

- أجل سنصبح في منزلنا سريعاً.

ضحكت ألين ونظراتها تتفحص جدران القلعة التي أخذت تلمع تحت أشعة الشمس متربعة فوق جزيرتها الخضراء، فبدت كأنها أحد الأبراج السحرية حيث يغدو الحلم حقيقة.

وقفت السيارة ونظر دومينيك اليها وهو يمسك بيدها فشعرت بقفزات السعادة تعتريها حيث تيقنت الآن ان الحلم قد اصبح حقيقة.